

فصل
الأقوال نوعان

obbeikandi.com

فصل

الأقوال نوعان:

أقوال ثابتة عن الأنبياء، فهي معصومة، يجب أن يكون معناها حقًا، عرفه من عرفه وجَّهله من جهله. والبحث في ذلك إنما هو عن معرفة ما أرادته الأنبياء بأقوالهم. ومن طلب تفسير كلامهم وتأويله، ومقصوده معرفة مرادهم من الوجه الذي به يُعرف مرادهم فقد سلك طريق الهدى؛ ومن كان مقصوده أن يجعل ما قالوه تبعًا له، فإن وافقه قبله وإلا رده، وتكلف له من التحريف ما يُسميه تأويلًا، مع أنه يعلم بالضرورة أن كثيرًا من ذلك أو أكثره لم تُرده الأنبياء = فهذا مُحرفٌ للكلم عن مواضعه، لا طالبٌ لمعرفة التأويل الذي يعرفه الراسخون في العلم.

والنوع الثاني: ما ليس منقولاً عن الأنبياء، فقد عُلِمَ أن من سواهم ليس بمعصوم، وحينئذٍ فلا يُقبل كلامه ولا يُردُّ إلا بعد تصور مراده ومعرفة صلاحه من فسادِه، فمن قال من أهل الكلام والجدل: إنه لا يفعل الأشياء بالأسباب، بل يفعل عندها لا بها، ولا يفعل لحكمة، وإنه لا يجعل في الأعيان صفاتٍ وطبائعٍ وخواصٍّ يُميِّز بها بين موصوفٍ وموصوف، وباعتبارها يحصل ما يحصل من آثارها الموجودة في العالم، ولا خصَّ الأفعال المأمور بها بما لأجله كانت حسنةً مأمورًا بها، ولا المنهي عنها بما لأجله كانت سيئاتٍ منهيةً عنها، وإنه ليس لشيء من القوى والقُدَر التي في الحيوان والإنسان وغيره وفي النبات والمعادن والعناصر الأربعة تأثيرٌ في شيء، بل لا فرق بين الماء والنار، تُخلق الحرارة عند ملاقاتها لا بقوة فيها،

والماء يُخلَقُ الرُّيُّ عنده لا بسبب عذوبة وقوة فيه، وأمثال ذلك =
فهذا مخالفٌ لنصوص القرآن والسنة وإجماع سلف الأمة.

ولم يقل هذا القول أحدٌ من سلف الأمة وأئمتها، وأول من قال
هذا القول في الاسلام الجهم بن صفوان الذي أجمع الأمة على
ضلالته، فهو أول من أنكر الأسباب والطبائع، كما أنه أول من ظهر
عنه القول بنفي الصفات وخلق كلام الله وإنكار رؤيته وغير ذلك،
ونصوص الكتاب والسنة وكلام السلف في إبطال هذا الأصل كثيرة
جدا، مثل قوله ﷺ في الحديث الصحيح^(١) لأشجَّ عبد القيس: «إن
فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة»، فقال: «أخلقين جِبتُ
عليهما أم تخلقتُ بهما؟ فقال: «بل جِبتُ عليهما»، فقال: الحمد لله
الذي جَبَلَنِي على ما يُحِبُّ. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾
إِذَامَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَامَسَّهُ الْخَيْرَ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾^(٢).

ومما يدلُّ على ذلك قوله تعالى في قصة إبراهيم: ﴿قُلْنَا يَا كُوفِي
بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾^(٣)، فسَلَبَ النارَ طبيعةَ الحرارة التي بها
تَسْخُنُ، وجعلها بردًا وسلامًا، ولو كان ما يَحْصُلُ عند ملاقاتها لا أثرَ
لها فيه لم يحتج إلى ذلك، بل كان يكفي أن لا يخلق الأثر عند
الملاقاة. بل قوله «بردًا وسلامًا» يَقْضِي أنه جعل فيها ما تُوجِبُ برودته

(١) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٢٨) وفي «الأدب المفرد» (٩٧٥)
وأبو داود (٥٢٢٥) عن زارع العبدي. وأخرجه أحمد (٢٠٥/٤) والبخاري في
«الأدب المفرد» (٥٨٤) وفي «خلق أفعال العباد» (٢٧) عن الأشج نفسه. وفي
الباب عن أبي سعيد الخدري وابن عباس.

(٢) سورة المعارج: ١٩ - ٢١.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٩.

وسلامته. والأدلة في ذلك كثيرة تُخبر أنه يخلق الأسباب والحكم،
 كقوله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَابًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾
 وَجَعَلْنَا الْأَفَاقَ ﴿١٦﴾﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿وَنَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ
 جِبْتًا وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿٢﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴿٣﴾
 الآية (٢). وقال تعالى: ﴿وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴿٤﴾
 الآية (٣). وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ
 حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا...﴾ (٤)، فذكر أن
 الرياح تُقِلُّ السحابَ أي تحمله، فجعلَ هذا الجماد فاعلاً بطبعه.
 وقال تعالى: ﴿وَالَّذَرِيَّتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾﴾ الآيات (٥). وقال: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ
 أَنْفَالَهَا ﴿٢﴾﴾ (٦)، وقال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴿٧﴾﴾ الآية (٧). وقال
 تعالى: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴿٨﴾﴾. وقال تعالى: ﴿كَلْنَا الْجَنَيْنَ ءِانَتْ
 أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنهُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ
 الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ ﴿١٠﴾﴾، فوصف السراويل بأنها تقي الحرَّ
 والباس. وقال تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿١١﴾﴾ (١١)،

(١) سورة النبأ: ١٤ - ١٦.

(٢) سورة ق: ٩ - ١١.

(٣) سورة البقرة: ١٦٤.

(٤) سورة الأعراف: ٥٧.

(٥) سورة الذاريات: ١ وما بعدها.

(٦) سورة الزلزلة: ٢.

(٧) سورة الحج: ٥.

(٨) سورة الإنعام: ٩٩.

(٩) سورة الكهف: ٣٣.

(١٠) سورة النحل: ٨١.

(١١) سورة الواقعة: ٦٩.

أخبر أنه أنزل الماء من المزن، وهو السحاب، كما أخبر أنه أنزله من المعصرات، وهو المراد بقوله ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ في مواضع آخر^(١)، وبيّن أنه لو شاء لجعله أجاجا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾^(٣)، فبيّن أن كلا من البحرين جعل فيه صفة قائمة به، عذوبة هذا وملوحة هذا، وامتنّ على عباده بذلك، وأنه لو شاء لجعل العذب أجاجا، فدلّ على أن المياه المشروبة مخصوصة بصفة جعلها بها تُشرب، وأنه لو جعله أجاجا لما شُرب، وبيّن أن أحد الجسمين يختصه بصفة يحصل بها الانتفاع ويختص أحدهما بقوة يكون بها الفعل.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾^(٤) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا^(٥) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا^(٦) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا^(٧)، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾^(٨) ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾^(٩)، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١٠)، وقال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾^(١١) أي صنف كريم، وهو الكثير المنفعة.

-
- (١) سورة المؤمنون: ١٨، سورة الفرقان: ٤٨، سورة لقمان: ١٠.
(٢) سورة الفرقان: ٥٣.
(٣) سورة فاطر: ١٢.
(٤) سورة النبأ: ١٣ - ١٦.
(٥) سورة الفرقان: ٤٨.
(٦) سورة الحديد: ٢٥.
(٧) سورة آل عمران: ١٣٨.
(٨) سورة لقمان: ١٠.

فمن قال من أهل الجدل والكلام: إنه يحدث النبات عند المطر لا به، فقد خالف نصَّ الرسول، مع مخالفته صريح المعقول، وكذلك في سائر ما يقوله، كقولهم: يحدث الشبع عند الأكل [لا] به، والزهوق عند القتل لا به، والهدى عند سماع القرآن لا به، فهذا النفي مخالف للكتاب والسنة والميزان للشرع، قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^(٣)، وقال: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾^(٤).

وكما أخبر أنه يخلق الأشياء من موادها، في مثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(٦) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ^(٧)، وقال: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾^(٨) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا^(٩).

وأخبر سبحانه أنه قائم بالقسط وأنه لا يظلم الناس شيئاً، فلا يضع شيئاً في غير موضع، ولا يُسوِّي بين مختلفين ولا يُفرِّق بين متماثلين، فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١٠) الآية. وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) سورة المائدة: ١٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٦.

(٣) سورة التوبة: ١٤.

(٤) سورة التوبة: ٥٢.

(٥) سورة الأنبياء: ٣٠.

(٦) سورة الرحمن: ١٤ - ١٥.

(٧) سورة نوح: ١٧ - ١٨.

(٨) سورة الجاثية: ٢١.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ (١)،
 وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢) الآية. وقال تعالى: ﴿وَمَا
 يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ (٣) الآية. وقال
 تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
 التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (٤) الآية. فدلَّ في هذه الآية وغيرها على أن
 ما أمرهم به هو معروف في نفسه تعرفه القلوب، فهو مناسب لها
 مُصْلِحٌ لفسادها، ليس معنى كونه معروفًا أنه مأمور به، إذ هذا قدر
 مشترك بينه وبين كل أمر حتى الشيطان، فإنه يأمر بما يأمر به، فعلم
 أن ما يأمر به الرسول مختصُّ بأنه معروف، وما ينهى عنه مختصُّ بأنه
 منكر، وما يُحِلُّه مختصُّ بأنه طيب، وما يُحَرِّمه مختصُّ بأنه خبيث.
 ومثل هذا كثير في القرآن وفي غيره من الكتب كالتوراة والإنجيل
 والزيور. والله سبحانه أعلم. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله
 على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا.

* * *

(١) سورة ص: ٢٨.

(٢) سورة القلم: ٣٥.

(٣) سورة فاطر: ١٩ - ٢٠.

(٤) سورة الأعراف: ١٥٧.

قاعدة في شمول آي الكتاب والسنة
والإجماع أمرَ الثقلين الجنِّ والإنسِ ،
وما يتعلق بهم من الخطاب وغيره

obeikandi.com

قال سيدنا وشيخنا شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحرّاني رحمه الله :

قاعدة شريفة

ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أمرُ الثقلين: الجنّ والإنس، كما أخبر به في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ التَّرِيَاتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾^(١)، وبقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٢).

وثبت أن محمداً رسولَ الله ﷺ رسولٌ إلى الثقلين جميعاً، كما أخبر به في سورة الرحمن^(٣)، وقل أوحى^(٤)، والأحقاف^(٥)، وكما في الأحاديث المشهورة، مثل حديث ابن مسعود^(٦) وغيره.

وثبت بالسنة والإجماع مع ما دلّ عليه القرآن أن القلم مرفوعٌ عن الصبي حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ، كما في حديث علي بن أبي طالب وعائشة وغيرهما: «رُفِعَ القلمُ عن ثلاثٍ»^(٧)، مع قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِزَّ بِكُمْ الَّذِينَ

(١) الآية ١٣٠.

(٢) سورة هود: ١١٩.

(٣) الآيات ٣١ - ٣٩.

(٤) هي سورة الجن: ١ وما بعدها.

(٥) الآيات ٢٨ - ٣٢.

(٦) أخرجه مسلم (٤٥٠).

(٧) حديث علي أخرجه أحمد (١٥٤/١، ١٥٨) وأبو داود (٤٤٠١، ٤٤٠٢) وابن

خزيمة (١٠٠٣، ٣٠٤٨) وغيرهم. وحديث عائشة أخرجه أحمد (١٠٠/٦، ١٠١،

١٤٤) وأبو داود (٤٣٩٨) والنسائي (١٥٦/٦) وابن ماجه (٢٠٤١) وغيرهم.

مَلَكَتْ أَيْمَانَكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ
 الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٢﴾﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَابْتَلُوا
 الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾،
 وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ ﴿٤﴾ فِي غَيْرِ
 مَوْضِعٍ ﴿٥﴾، مَعَ مَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ نَهْيِهِ عَنِ قَتْلِ النِّسَاءِ
 وَالصِّبْيَانِ، وَأَنَّهُ اسْتَعْرَضَ قَرِيظَةً فَمِنْ أَنْبَتَ قَتَلَهُ، وَمَنْ لَمْ يُبَيِّنْ لَمْ
 يَقْتُلْهُ. وَمَا رُوِيَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي فِيهَا: «ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ يُدْلِي عَلَى اللَّهِ
 بِحُجَّتِهِ» ﴿٦﴾.

فَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ ﴿٥﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ،
 فَإِنَّمَا يَتَنَاوَلُ مَنْ لَا يَعْقِلُ مِنَ الْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينِ، فَأَمَّا الصَّبِيُّ الْمَمَيَّرُ
 فَتَكْلِيفُهُ مُمْكِنٌ فِي الْجُمْلَةِ، وَلِهَذَا يَصْحَحُ أَكْثَرُ الْفُقَهَاءِ تَصْرِفَاتِهِ تَارَةً
 مُسْتَقِلًّا كِإِيمَانِهِ، وَتَارَةً بِالِإِذْنِ كَمَعَاوِضَاتِهِ الْكَبِيرَةِ.

وَاخْتَلَفُوا فِي وَجُوبِ الصَّلَاةِ عَلَى ابْنِ عَشْرِ، وَفِي وَجُوبِ الصَّوْمِ
 عَلَى مَنْ أَطَاقَهُ. وَالْخِلَافُ فِيهِ مَعْرُوفٌ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ، حَتَّى اخْتَلَفَ
 فِي صِحَّةِ شَهَادَتِهِ وَأَمَانِهِ وَإِمَامَتِهِ وَوَلَايَتِهِ فِي النِّكَاحِ وَعَتَقِهِ.

وهنا مسائل :

(١) سورة النور: ٥٨ - ٥٩.

(٢) سورة النساء: ٦.

(٣) سورة الأنعام: ١٥٢؛ سورة الإسراء: ٣٤.

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنن» (٤٠٤) عن أبي هريرة بلفظ: «أربعة...». ورواه أحمد (٢٤/٤) عن الأسود بن سريع بنحوه. وانظر «الصحيح» (١٤٣٤).

(٥) سورة الإسراء: ١٥.

المسألة الأولى

أن من نتائج التكليف: العقاب والثواب، عقاب العاصي وثواب المطيع.

فأما العقاب: فما علمتُ أحدًا من أهل القبلة خالف في أن الكافر مُعَذَّبٌ في الجملة، وإن اختلفوا في تفاصيل عذابه. ونصوصُ القرآن متظاهرة بعذاب الكافرين، وكذلك الذي عليه عامة المسلمين من جميع الطوائف عقوبةٌ فُجَّار أهل القبلة في الجملة: إما في الدنيا بالمصائب والحدود؛ وإما في الآخرة. وأما غلاة المرجئة فرُويَ عنها أنها نَفَتْ ذلك، كما أن الخوارج والمعتزلة جَزَمَتْ بوقوع ذلك على جميع الفاسقين وخلودهم في النار.

وأما الثواب: فاتفقت الأمة على ثواب الإنس على طاعتهم. واختلفوا في الجن هل يُثابون أو لا ثوابَ لهم إلا النجاة من العذاب؟ على قولين: الأول قول الجمهور من المالكية والشافعية والحنبلية وأبي يوسف ومحمد وغيرهم. والثاني مأثورٌ عن طائفة، منهم أبو حنيفة.

وقد اختلف في أصولِ الفقه: هل من شرطِ الوجوبِ العقابُ على الترك؟ على قولين. وأما الثواب على الفعل فهو واجب، إما بالسمع، وإما بمجرد الإيجاب.

المسألة الثانية

أن من لا تكليفَ عليه هل يُبعثُ يومَ القيامة؟
فأما الإنس والجن فيُبعثون جميعًا باتفاق الأمة، ولم يختلفوا

- فيما علمتُ - إلا فيمن لم يُنفخ فيه الروحُ: هل يُبعث؟ على قولين .
وبعثه اختيارُ القاضي وكثيرٍ من الفقهاء، وذكر أنه ظاهر كلام أحمد
رضي الله عنه .

وأما البهائم فهي مبعوثَةٌ بالكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٣٨) (١)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ (٢)،
والحديثُ في قول الكافر ﴿ يَلَيِّتَنِي كُنْتُ تُرْبًا ﴾ (٣) معروف (٤) . وما
أعلمُ فيه خلافاً .

لكن اختلف بنو آدم في معاد الأدميين على أربعة أقوال:

أحدها - وهو قول جماهير من المسلمين أهل السنة والجماعة،
وجماهير متكلميهم، وجماهير اليهود والنصارى والمجوس وجمهور
غيرهم - أن المعاد للروح والبدن، وأنهما يُنعمان ويُعذبان .

والثاني - وهو قول طائفة من متكلمي المسلمين من الأشعرية وغيرهم -
أن المعاد للبدن، وأن الروح لا معنى لها إلا حياة البدن، فيحيا البدن
ويُنعم ويُعذب . وأما معادُ روحٍ قائمةٍ بنفسِها ونعيمها وعذابها فينكرونه .

والثالث: ضدّ هذا، وهو قول الإلهيين من الفلاسفة وطائفة ممن
يُبطن مذهبهم من بعض متكلمي أهل القبلة ومتصوفتهم، أن المعاد
للروح دون البدن .

(١) سورة الأنعام: ٣٨ .

(٢) سورة التكوير: ٥ .

(٣) سورة النبأ: ٤٠ .

(٤) انظر تفسير الطبري (١٧/٣٠ - ١٨) .

الرابع: أنه لا معاد أصلاً، لا لروح ولا لبدن، وهو قول أكثر مشركي العرب، وكثير من الطبائعيين والمنجّمين وبعض الإلهيين من الفلاسفة.

فعلى هذين القولين يُنكر حشرُ البهائم، وعلى القول الأول يقبل الخلاف.

المسألة الثالثة

أن من لا تكليفَ عليه - بل قد رُفِعَ عنه القلم - هل يُعذَّب في الآخرة؟

وهنا مسألة أطفال المشركين، فمن قال من أصحابنا وغيرهم: إنهم يُعذَّبون تبعاً لآبائهم، قال بعذاب غير المكلف تبعاً؛ ومن قال: يدخلون الجنة من أصحابنا وغيرهم، قال بتنعيمهم.

والصواب الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة أنهم لا يُعذَّبون جميعهم ولا يُنعمون جميعهم، بل فريقٌ منهم في الجنة وفريقٌ في السعير كالبلّغ. وهذا مقتضى نصوص أحمد، فإن أكثر نصوصه على الوقف فيهم، بمعنى أنه لا يُحكّم لأحدٍ منهم لا بجنة ولا بنار، فدلَّ على جواز الأمرين عنده في حقّ المعين منهم. وأما تجويز الأمرين في حقّ مجموعهم فلا يلزمه، وهذا قول الأشعري وغيره.

وبهذا أجاب رسولُ الله ﷺ لما سُئل عنهم فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(١)، فبيّن أن الأمر مردودٌ إلى علم الله بما كانوا يعملون لو بلغوا.

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة وابن عباس، انظر: البخاري (٦٥٩٧، ٦٥٩٨) ومسلم (٢٦٥٩، ٢٦٦٠).

وقد ثبت عنه ﷺ في البخاري^(١) أنه رأى حول إبراهيم عند الجنة أطفال المسلمين والمشركين. وثبت عنه في صحيح مسلم^(٢) أن الغلام الذي قتله الخضر طُبعَ يومَ طُبعَ كافرًا، مع أنه قُتِلَ قبل الاحتلام. قال ابن عباس لتجدة الحروري لما سأله عن قتل الغلمان، فقال: إن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام الذي قتله فاقتلهم، وإلا فلا تقتلهم. هذا مع أن أبويه كانا مؤمنين. وفي الصحيحين^(٣) عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن أهل الدار من المشركين يُيَّبُونَ لِيُصَابَ من صبيانهم، فقال: «هم منهم».

ويجوز قتل الصبي إذا قاتل، وإذا صال ولم تندفع صولته إلا بالقتل، وكذلك المجنون والبهيمة. فقد يجوز قتل الصبي في بعض المواضع. وحديث عائشة في قولها: عصفورٌ من عصافير الجنة، فقال النبي ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة؟! فإن الله خلق للجنة أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم»^(٤).

ولهذا قال أصحابنا: لا يُشْهَد لأحدٍ بعينه من أطفال المؤمنين أنه في الجنة، ولكن يُطْلَقُ القولُ: إن أطفال المؤمنين في الجنة.

وقد رُوِيَ بأحاديث حسان^(٥) عن النبي ﷺ أن من لم يُكَلَّفَ في

(١) برقم (٧٠٤٧) عن سمرة بن جندب.

(٢) برقم (٢٦٦١) عن أبي بن كعب.

(٣) البخاري (٣٠١٢) ومسلم (١٧٤٥) عن الصعب بن جثامة.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٢).

(٥) أخرجه البزار من حديث أنس وأبي سعيد، وأخرجه الطبراني من حديث معاذ

ابن جبل، انظر «فتح الباري» (٣/٢٤٦).

الدنيا من الصبيان والمجانين، ومن مات في الفترة - يُمتحنون يوم القيامة، فمن أطاعَ دخلَ الجنة، ومن عصَى دخلَ النار. وهذا التفصيل هو الصواب، فإن الله قال في القرآن: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥) (١)، فأقسم سبحانه أنه لا بد أن يملأ جهنم من إبليس وأتباعه، وأتباعه هم العصاة، ولا معصية إلا بعد التكليف، فلو دخلها الصبي والمجنون لدخلها من هو من غير أتباعه، فلم تمتلئ منهم.

وأيضاً فقد قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) (٢)، وقال سبحانه: ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (٣)، وقال سبحانه: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُنَّهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ الآية (٤)، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على أن الله لا يُعذِّب إلا من جاءه نذير وأتاه رسول، والطفل والمجنون ليسا كذلك كالبهائم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٥). فأخبر سبحانه أنه استخرج ذرياتهم، وأشهدهم على أنفسهم، لئلا يقولوا: أتُهلكنا بما فعل المبتلون، فعلم أنه لا يُعاقبهم بذنب غيرهم.

وأما البهائم فعامّة المسلمين على أنه لا عقابَ عليها، إلا ما يُحكى عن التناسخية بأنهم مكلفون، فيستحقون العقاب، وهذا نظير قول من يقول: لا تُحشِر. لكن هنا:

-
- (١) سورة ص: ٨٥.
(٢) سورة الإسراء: ١٥.
(٣) سورة النساء: ١٥٨.
(٤) سورة الملك: ٨ - ٩.
(٥) سورة الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣.

المسألة الرابعة

وهو ما يُشْرَع في الدنيا من عقوبة الصبيان والمجانين والبهاائم على الذنوب، مثل ضرب الصبي على ترك الصلاة لعشر، وما يفعله من قبيح؛ وكذلك ضرب المجنون لكفّ عدوانه؛ وضرب البهاائم حصّاً على الانتفاع بها كالسّوق، ودفعا لمضرّتها كقتل صائلها؛ وما جاء في الحديث^(١) أنه يُقتَصُّ في الآخرة للجَمَاءِ من القَرْناءِ. فهذه الأمور عقوبات لغير المكلفين، وهي نوعان: أحدهما ما كان عقوبةً في الدنيا لمصلحة، والثاني ما كان لأجل حقّ غيره.

فأما النوع الأول فمَشْرُوعٌ في حقّ الصبيّ والمجنون، فإنه يُضْرَبُ الصبي على ترك الصلاة ليفعلها ويعتادها، ويُضْرَبُ المجنون إذا أخذ يُؤذِي نفسه، ليكفّ عن إيذاء نفسه. ويجوز أيضا مثل هذا في حقّ البهاائم: أن تُضْرَبَ لمصلحتها، وهذا غير الضرب لحقّ الغير، وذلك أن العقوبة لمنفعة المعاقب هي بمنزلة سقّي الدواء للمريض، فإن المطلوب دفع ما هو أعظم مضرّة من الدواء.

النوع الثاني: العقوبة لأجل حقّ الغير، وهذا قسمان:

قسمٌ لاستيفاء المنفعة المباحة منه، كذبح البهاائم للأكل وضربها للمشّي، فإن ما لا يتمّ المباح إلا به فهو مباح.

والقسم الثاني: العقوبة لأجل العدوان على الغير، مثل قتل الصائل من المحاربين والبهاائم، وضرب المجانين والصبيان والبهاائم إذا اعتدى بعضهم على بعض، أو اعتدوا على العقلاء في أنفسهم وأموالهم.

(١) أخرجه أحمد (٣٦٣/٢) من حديث أبي هريرة.

فهذا النوع إن كان لدفع ضررهم جاز بلا خلاف، مثل قتل الصائل لدفع صوله، وقَتْل الكلب العَقُور الذي يُخَافُ من ضَرَرِه في المستقبل، وقَتْل الفواسقِ الخمس في الحِلِّ والحرم.

وأما إن كان على وجه الاقتصاص، مثل أن يَظلم صبيًّا صبيًّا، أو مجنونٌ مجنونًا، أو بهيمةٌ بهيمةً، فيقتَصَر للمظلوم من الظالم. وإن لم يكن في ذلك زجرٌ عن المستقبل، لكن لاستيفاء المظلوم وأخذ حَقِّه، فهذا الذي جاء فيه حديثُ الاقتصاص للجَمَاء من القرناء، كما قال النبي ﷺ: «لَتُؤَدَّى الحقوقُ إلى أهلها حتى يُستوفَى للجَمَاء من القرناء»^(١).

وهذا موافق لأصول الشريعة، فإن القصاصَ بين غير المكلفين ثابتٌ في الأموال باتفاق المسلمين، فمن أتلفَ منهم مالا أو غَصَبَ مالا أخذَ من ماله مثله، سواءً في ذلك الصبي والمجنون، والناسي والمخطيء. وكذلك في النفوس، فإن الله تعالى أوجبَ دية الخطأ، وهي من أنواع القصاص بحسب الإمكان، فإنَّ القَوَدَ لم يُمكن إيجابه، لأنه لا يكون إلا ممن فعَلَ المحرَّم، وهؤلاء ليسوا مكلفين، ولا يُخاطَبون بالتحريم، بخلاف ما كان من باب دفع الظلم وأخذ الحق، فإنه لا يُشترط فيه الإثم. ولهذا تُقاتلُ البُغاةُ وإن كانوا متأولين مغفورًا لهم، ويُجلدُ شاربُ النبيذ وإن كان متأولًا مغفورًا له.

فتبيِّنَ بذلك أن الظلم والعدوان يُؤدَّى فيه حقُّ المظلوم، مع الإثم والتكليف ومع عدم ذلك، فإنه من باب العدل الذي كتبه الله تعالى على نفسه، وحَرَّمَ الظلمَ على نفسه وجَعَلَهُ محرَّمًا بين عباده.

(١) سبق تخريجه.

المسألة الخامسة

دار التكليف

فالدنيا دارُ تكليفٍ بلا خلافٍ، وكذلك البرزخُ وعَرَصَةُ القيامةِ، وإنما ينقطع التكليف بدخولِ دارِ الجزاءِ، وهي الجنةُ أو النارُ، كما صَرَّحَ بذلك مَنْ صَرَّحَ من أصحابنا وغيرهم، مستدلِّين بامتحانٍ منكرٍ ونكيرٍ للناسِ في قبورهم وفتنتهم إيَّاهم؛ وبأنَّ الناسَ يومَ القيامةِ يُدْعَوْنَ إلى السجودِ، فمنهم من يستطيع، ومنهم من لا يستطيع؛ وبأنَّ من لم يُكَلَّفْ في الدنيا يُكَلَّفْ في عرصاتِ القيامةِ.

وهذا ظاهرُ المناسبةِ، فإنَّ دارَ الجزاءِ لا امتحانَ فيها، وأما الامتحانُ قبلَ دارِ الجزاءِ فممكِنٌ لا محذورَ فيه، والامتحانُ في البرزخِ لمن كان مكلفًا في الدنيا، إلَّا النبيينَ، ففيهم قولان لأصحابنا وغيرهم. وأما امتحانُ غيرِ المكلفينَ في الدنيا - كالصبيانِ والمجانين - ففيهم قولان لأصحابنا وغيرهم:

أحدهما: لا يُمتَحَنونَ، وعلى هذا فلا يُلقَّنونَ. وهذا قولُ القاضي وابن عقيل.

والثاني: يُمتَحَنونَ في قبورهم ويُلقَّنونَ. وهو قولُ أكثرهم، حكاه ابن عبدوس عن الأصحاب، وذكره أبو حكيمة وغيره، وهو أصحُّ، كما ثبتَ عن أبي هريرة، ورؤي مرفوعًا أنه صلى على طفلٍ لم يعملْ خطيئةً قطُّ، فقال: «اللهمَّ قَهْ عذابَ القبرِ وفتنةَ القبرِ»^(١).

(١) أخرجه أحمد (٤٩١/٣) وأبو داود (٣٢٠٢) وابن ماجه (١٤٩٩) عن واثلة بن الأسقع.

وهذا الاختلاف في امتحانهم في البرزخ يُشبه الاختلاف في امتحانهم في العرصة، وقول من يقول بامتحانهم أقرب إلى النصوص والقياس من قول من يقول: يُعاقبون بلا امتحان.

المسألة السادسة

أن غير المكلف قد يُرحم، فإن أطفال المؤمنين مع آبائهم في الجنة، كما دلّ عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمُ﴾ الآية (١)، وكما في الصحيحين (٢) من حديث أبي هريرة وأنس عن النبي ﷺ أنه قال: «احتجّت الجنة والنار، فقالت الجنة: لا يدخلني إلا الضعفاء والمساكين؛ وقالت النار: يدخلني الجبارون المتكبرون. فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من شئت؛ وقال للنار: إنما أنت عذابي أعدب بك من شئت، ولكل واحد منكما ملؤها». فأما النار فلا يزال يُلقى فيها وتقول: «هل من مزيد»، حتى يضع رب العزة فيها - وفي رواية: عليها - قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط - قط. وأما الجنة فيفضل فيها فضل، فيُنشئ الله لها خلقاً آخر». فهذا الحديث المستفيض المتلقى بالقبول نص في أنّ الجنة يُنشأ لها في الدار الآخرة خلق يدخلونها بلا عمل، وأنّ النار لا يدخلها أحد بلا عمل.

وقد غلط في هذا الحديث المعطلة الذين أولوا قوله «قدمه» بنوع من الخلق، كما قالوا: الذين تقدّم في علمه أنهم أهل النار. حتى قالوا

(١) سورة الطور: ٢١.

(٢) البخاري (٤٨٥٠، ٧٤٤٩) ومسلم (٢٨٤٦) عن أبي هريرة. أما حديث أنس فبغير هذا اللفظ، أخرجه البخاري (٤٨٤٨، ٦٦٦١، ٧٣٨٤) ومسلم (٢٨٤٨). ويوافق حديث أبي هريرة حديث أبي سعيد الخدري الذي أخرجه مسلم (٢٨٤٧).

في قوله «رجله»: كما يقال: رَجُلٌ مِنْ جَرَادٍ. وَغَلَطَهُمْ مِنْ وَجوهِ:
فإنَّ النبي ﷺ قال: «حتى يضع»، ولم يقل: حتى يُلقَى، كما
قال في قوله: «لا يَزَالُ يُلقَى فيها».

الثاني: أن قوله «قدمه» لا يُفهم منه هذا، لا حقيقةً ولا مجازاً،
كما تدلُّ عليه الإضافة.

الثالث: أن أولئك المؤخرين إن كانوا من أصاغر المعدبين فلا
وجهَ لانزوائها واكتفائها بهم، فإنَّ ذلك إنما يكون بأمرٍ عظيم، وإن
كانوا من أكابر المجرمين فهم في الدرك الأسفل، وفي أول المعدبين
لا في أواخرهم.

الرابع: أن قوله «فينزوي بعضها إلى بعض» دليلٌ على أنها تنضمُّ
على من فيها، فتضيقُ بهم من غير أن يُلقَى فيها شيء.

الخامس: أن قوله «لا يزال يُلقَى فيها، وتقول: هل من مزيد؟
حتى يضعَ فيها قدمه» جعلَ الوضعَ الغايةَ التي إليها ينتهي الإلقاء،
ويكون عندها الانزواء، فيقتضي ذلك أن تكون الغايةُ أعظمَ مما قبلها.

وليس في قول المعطلةٍ معنى للفظ «قدمه» إلا وقد اشترك فيه
الأول والآخر، والأول أحقُّ به من الآخر.

وقد يغلط في الحديث قومٌ آخرون مُمثلةٌ أو غيرهم، فيتوهمون
أن «قدمَ الربِّ» تدخلُ جهنم. وقد توهم ذلك على أهل الإثبات قومٌ
من المعطلة، حتى قالوا: كيف يدخل بعضُ الربِّ النَّارَ واللهُ تعالى
يقول: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾^(١)؟

(١) سورة الأنبياء: ٩٩.

وهذا جهلٌ ممن توهمه أو نقله عن أهل السنة والحديث، فإنَّ الحديث: «حتى يضع ربُّ العزة عليها - وفي رواية: فيها -، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط وعزَّتكَ»، فدلَّ ذلك على أنها تضايقت على من كان فيها فامتلات بهم، كما أقسم على نفسه إنَّه ليملاؤها من الجنة والناس أجمعين، فكيف تمتلىء بشيء غير ذلك من خالقٍ أو مخلوق؟ وإنما المعنى أنه تُوضَع القدمُ المضافُ إلى الربِّ تعالى، فتنزوي وتضيقُ بمن فيها. والواحدُ من الخلق قد يركضُ متحركاً من الأجسام فيسكن، أو ساكناً فيتحرك، ويركضُ جبلاً فيتفجَّر منه ماءٌ، كما قال تعالى: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٤٢) (١)، وقد يضع يده على المريض فيبرأ، وعلى الغضبان فيرضى.

المسألة السابعة

أنَّ التكليفَ بالأمر والنهي ثابت بالشرع باتفاق المسلمين، وفي ثبوته بالعقل اختلافٌ بين العلماء من أصحابنا وغيرهم، والمسألة مشهورة، مسألة التحسين والتقيح ووجوب الواجبات وتحريم المحرمات، هل ثبتت بالعقل؟ ومسألة وجوب معرفة الله وشكره، ومسألة الأعيان قبل السَّمع. وفي المسألة تفصيل كتبه في غير هذا الموضوع، إذ المقصود هنا النكت المستغربة.

وأما الثواب والعقاب فمعلومٌ بالسمع بلا خلافٍ بين المسلمين، وهل يُعلم بالعقل؟ مبنيٌّ على المعاد، فإنَّ المعادَ معلومٌ بالسمع بلا ريب، وهل يُعلم بالعقل؟ قد اختلفَ فيه:

فذهب كثيرٌ من أهل الكلام وذهب أكثر الناس إلى أن المعاد من

(١) سورة ص: ٤٢.

الأمر السمعية التي لا تُعَلَّم إلا بالسمع، وهو قول كثير من أصحابنا والأشعرية وغيرهم.

وذهب طوائف إلى أنه يُعَلَّم بالعقل، ثمَّ تنوعت مسالكهم:

منهم من بناه على وجوب العدل، وأن ذلك يَقْتَضِي معادًا غير هذه الدار، يُجْزَى فيها الظالمون بظلمهم، أو يُعَوِّض المعدَّبون على عذابهم. وهذا مسلك كثير من المعتزلة وغيرهم.

ومنهم من بناه على أن الروح غير البدن، وأنها باقية بعده، وأن لها من النعيم والعذاب الروحانيين ما لا يُفَارِقُهَا. وهذا مسلك كثير من المتفلسفة ومن نحا نحوهم، ومن هؤلاء من يُثَبِّت معاد الأرواح العالمة دون الجاهلة، وفيهم من يُنْكِر المعادَيْنِ.

والصواب أن معرفته بالسمع واجبة، وأما بالعقل فقد تُعْرَف وقد لا تُعْرَف، فليست معرفته بالعقل ممتنعة، ولا هي أيضًا واجبة. وأما المتفلسفة فثَبِّت المعاد بالعقل، وثَبِّت التكليف العقلي، وأما ما جاء به السَّمْع من المعاد والشرائع فلها فيه تأويلاتٌ محرَّفةٌ.

فصارت الأقسام في الإيمان باليوم الآخر وفي العمل الصالح: هل هو معلومٌ بالشرع وحده أو بالعقل وحده أو يُعَلَّمُ بكلِّ منهما؟ فيه هذا الخلاف بين أهل الأرض. وإن كان الصواب أن ذلك معلومٌ جميعه بالشرع قطعًا، وقد يُعَلَّمُ بعضه [بالعقل].

بل مثل هذا الخلاف ثابتٌ في معرفة الله تعالى، لكن التجاء المتكلمين هناك إلى العقل أكثر. وكثير من المتكلمين - كأكثر المعتزلة وكثير من الأشعرية - لا يُعَلَّمُ عندهم وجودُ الربِّ وصفاته إلا بالعقل، كما يزعمه الفلاسفة، مع اضطراب هؤلاء وآخرين في مقابلتهم.

وقد كتبتُ تفاصيلَ أقوالِ الناسِ وبيَّنتُ مذهبَ أئمةِ السُّنةِ والحديثِ في هذا الأصلِ في «قاعدة نفي التشبيه ومسألة الجسم»، وإنما الغرضُ هنا التكليف وتوابعه.

وإنما قرَّنتُ بين الأصولِ الثلاثةِ التي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١)، فأشرتُ إلى طرقِ الناسِ في معرفتها.

والحمد لله وحده أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً مباركاً دائماً بدوامه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(فرغتُ يومَ الثلاثاءِ سادسَ عشرَ من شهرِ صفرِ سنةِ ستِ وستينِ وسبعِ مئة. علَّقها العبدُ الفقيرُ إلى رحمةِ ربه الغفور، وعفوه وصفحه وجوده وكرمه وستره وبرّه ومثّه: عبدالمنعم البغدادي الحنبلي، عفا الله عنه بمثّه وكرمه وعن جميع المسلمين).

* * *

(١) سورة البقرة: ٦٢.

obeikandi.com

مسألة فيمن قال:

إن عليًا أشجعُ من أبي بكر

مسألة

في رجلين تكلمتا فقال أحدهما: إن عليًا أشجع من أبي بكر،
وقال آخر: [إن] أبا بكر أشجع الصحابة.

الجواب

الحمد لله. الذي عليه سلف الأمة وأئمتها أن أبا بكر الصديق
أعلم الصحابة وأدينُ الصحابة وأشجعُ الصحابة وأكرمُ الصحابة، وقد
بُسط هذا في الكتب الكبار وبيِّن ذلك بالدلائل الواضحة. وذلك أن
الشجاعة ليست [عند] أهل العلم بها كثرة القتل باليد ولا قوة البدن،
فإن نبينا ﷺ أشجع الخلق، كما قال علي بن أبي طالب^(١): كُنَّا إِذَا
احمَرَ البأسُ وَلَقِيَ القومُ القومَ كُنَّا نَتَّقِي برسولِ الله ﷺ، فكان يكون
أقربَ إلى القوم منا. وقد انهزم أصحابه يوم حُنين وهو على بَعْلِهِ
يسوقُها نحو العدو، ويتسمَّى بحيث لا يُخفي نفسه، ويقول:

أنا النبيُّ لا كَذِبُ أنا ابنُ عبدالمطلبِ^(٢)

ومع هذا فلم يقتل بيده إلا واحداً، وهو أبي بن خلف، قتله يوم أُحد.
وكان في الصحابة من هو أكثر قتلاً من أبي بكر وعمر وعثمان
وعلي، وإن كان لا يفضل عليهم في الشجاعة، مثل البراء بن مالك
أخي أنس بن مالك، فإنه قتل مئة رجلٍ مبارزةً غيرَ مَنْ شركَ في دمه.

(١) أخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» (ص ٥٨) ومن طريقه البغوي في «شرح
السنة» (٢٥٧/١٣). وهو في «المسند» (٢/٢٢٨، ٣٤٣ طبعة المعارف) بنحوه.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧٥) عن البراء بن عازب.

ولم يقتل أحدٌ من الخلفاء على عهد النبي ﷺ هذا العدد، بل ولا حمزةُ سيّد الشهداء - الذي يُقال: إنه أسدُ الله ورسوله - لم يقتل هذا العدد، وهو في الشجاعة إلى الغاية. وكذلك الزبير بن العوام هو في الشجاعة إلى الغاية، حتى قال فيه النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إن لكل نبيٍّ حوارياً، وحواريّ الزبير»^(١)، ولم يقتل في عهد النبي ﷺ هذا العدد.

وغزواتُ النبي ﷺ وسراياه مضبوطة عند أهل العلم بالسيرة والحديث، والله تعالى كان يُباركُ لنبية وأصحابه في مغازيهم، فمع العمل القليل يظهر الإسلامُ وتفشو الدعوة ويدخلون في دين الله أفواجا. ومجموعُ من قتلَ الصحابةُ كلُّهم مع النبي ﷺ لا يبلغون ألفَ نفسٍ، بل أقلّ من ذلك، ومع هذا بركة الإيمان فتحتُ أرضُ العرب كلها في حياته.

وكان القتلُ يومَ بدر، وهي أولُ مغازي القتال، وأسروا منها سبعين أو نحوها. وأما يومَ أحدٍ فقتلَ الكفارُ قليلاً جداً، وكذلك يومَ الخندق ويومَ فتح مكة، والقتلى في خيبر وحنين ليسوا بالكثير. وأعظمُ عدداً قُتلوا جميعاً قتلى قريظة، فإنهم بلغوا ثلاث مئة أو أربع مئة قتلهم جميعاً.

وجملتهُ مغازي النبي ﷺ بضعٌ وعشرون غزاةً، وكان القتال فيها في تسع: مغازي بدر وأحد والخندق وبني المصطلق وقريظة^(٢) وخيبر والفتح وحنين والطائف، وأعظم ما كان مع النبي ﷺ يومَ تبوك بلَغوا عشراتِ ألوفٍ، ولكن لم يكن في تبوك قتالاً، بل أقام النبي ﷺ بتبوك عشرين يوماً يقصُر الصلاة، وكان قد جاء لقتالِ النصارى من الروم والعرب وغيرهم، فلم يُقدِّموا على قتاله.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٦ ومواضع أخرى) ومسلم (٢٤١٥) عن جابر بن عبد الله.

(٢) في الأصل رسم كلمة غير واضحة، والمقصود ما أثبت.

وأما هذه المحاربات التي يذكرها الكذابون، وكثرة القتلى التي يذكرها أهل الفرية، فكذبها معروفٌ عند كل عالم. وإذا كان القتلى نحوًا ممن ذكروا [و] المُقاتِلَةُ في الصحابة كثيرون من المهاجرين والأنصار، مثل عمر وعلي وحمزة والزبير والمقداد وأمثالهم، ومثل أبي أيوب وأبي طلحة وأبي قتادة وأبي دُجانة، ثم مثل خالد بن الوليد وأمثاله، وقَتْلُ الواحدِ من هؤلاء يُقَارِبُ قَتْلَ عمر وعلي وغيرهما، ينقص عنه أو يزيد عنه، ولهذا لما جاء علي رضي الله عنه أخذ بسيفه إلى فاطمة وقال: اغسله عن دمهم، قال له النبي ﷺ: «إن تكن أحسنت فقد أحسنَ فلان وفلان»^(١) وسمي طائفة من المسلمين -: «عِلْمٌ»^(٢) أنه لم يمتنع أن يكون أحدٌ من الخلفاء قَتَلَ مئةً من الكفار مع النبي ﷺ.

وأما خالد بن الوليد والبراء بن مالك وأمثالهما فهؤلاء قَتَلَ الواحدُ منهم مئةً وأكثر، لمغازيهم بعد موت النبي ﷺ، فانهم لما غزوا أهل الردة وفارس والروم كان القتلى من الكفار كثيرًا جدًا لكثرة الجموع. والخلفاء الراشدون لم يَعْرِزْ أَحَدٌ منهم بعد موت النبي ﷺ، ولا باشرَ بنفسه قتال الكفار بعده، وإنما كانوا هم أولي الأمر، فكان أبو بكر يُشاورُ عمر وعثمان وعليًا وغيرهم، وكذلك عمر كان يُشاورُ هؤلاء وغيرهم، وهم عنده. ولكن الزبير بن العوام شهد فتح مصر، وسعد ابن أبي وقاص فتح العراق، وأبو عبيدة بن الجراح فتح الشام. وإذا تبينَ هذا فالشجاعة هي ثباتُ القلب وقوته، وقوةُ الإقدام

(١) كما في سيرة ابن هشام (١٠٦/٣) عن ابن إسحاق، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢١٥/٣) عن موسى بن عقبة. وأورد ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤٤٩/٥)، (٤٥٠) روايات أخرى في هذا الباب. وانظر «منهاج السنة» (٤٨١/٤، ٩٤/٨).
(٢) جواب «إذا كان القتلى...».

على العدو، والبعد عن الجزع والخوف، فهي صفة تتعلق بالقلب،
وإلا فالرجل قد يكون بدنّه أقوى الأبدان، وهو من أقدر الناس على
الضرب والطعن والرمي، وهو ضعيف القلب جبان، وهذا عاجز.
وقد يكون الرجل يقتل بيده خلقًا كثيرًا، وإذا دهمته الأمور الكبار
مالت عليه الأعداء، فيضعف عنهم أو يخاف.

وأبو بكر الصديق كان أقوى الصحابة قلبًا وأربطهم جأشًا وأعظمهم
ثباتًا وأشدّهم إقدامًا وأبعدهم عن الجزع والضعف والجبن، ولهذا
كان النبي ﷺ يضحبه وحده في المواضع التي يكون أخوف ما يكون
فيها، كما صحبه في الهجرة، وكان معه في الغار، والأعداء يطلبهما
ويبذل ديتهما لمن يأتي بهما، وكان معه في العريش يوم بدرٍ وحده
والكفار قاصدون الرسول خصوصًا. ولهذا لما مات النبي ﷺ ظهر
من شجاعته وبسالته وصبره وثباته وسياسته وتدبيره وإمامته للدين
وقمعه للمرتدين ومعونته للمؤمنين وسدّ ظهورهم ما لا تتسع هذه
الورقة. وكلّ من له بالشجاعة أدنى خبرة يعلم أنه لم يكن منهم من
يقاربه في الشجاعة فضلًا أن يُشاريه. وكذلك كان عمر، كان أشجعهم
بعده، كما أن أبا بكر كان أعلمهم، كما ذكر الإمام منصور بن
عبدالجبار السمعاني إجماع العلماء على أن أبا بكر أعلم الأمة بعد
رسول الله ﷺ، وهو مبسوط في غير هذا الموضع^(١). والله أعلم.

* * *

(١) انظر «منهاج السنة» (٨/٨٢ - ٨٩).

تفسير أول سورة العنكبوت

obeikandi.com

قال شيخ الإسلام بحر العلوم مفتي الفرق أبو العباس أحمد بن
تيمية رحمه الله :

فصل

قال الله تعالى : ﴿الْم ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا
يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ
كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا
يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا
وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنْتَكُمُ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمَنْ
النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ
نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾
وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ ﴿١﴾

وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ
خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ءَآلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٢) . وقال الله تعالى لما ذكر المرتد
والمكره بقوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ (٣) قال بعد ذلك :

(١) سورة العنكبوت : ١ - ١١ .

(٢) سورة البقرة : ٢١٤ .

(٣) سورة النحل : ١٠٦ .

﴿ ثُمَّ إِنْ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنَّا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا
إِنْ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١).

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا؛ وإما أن لا يقول: آمنا، بل يستمر على عمل السيئات. فمن قال «آمنا» امتحنه الرب عز وجل وابتلاه، وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل «آمنا» فلا يحسب أنه يسبق الرب لتجربته، فإن أحداً لن يُعجز الله تعالى.

هذه سنته تعالى، يُرسل الرسل إلى الخلق، فيكذبهم الناس ويؤذونهم، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (٤).

ومن آمن بالرسول وأطاعهم عادوه وآذوه، فابتلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم عوقب، فحصل ما يؤلمه أعظم وأدوم. فلا بد من حصول الألم لكل نفس سواء آمنت أم كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة. والكافر تحصل له النعمة ابتداءً، ثم يصير في الألم.

سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبد الله! أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يُبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكن حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى

(١) سورة النحل: ١١٠.

(٢) سورة الأنعام: ١١٢.

(٣) سورة الذاريات: ٥٢.

(٤) سورة فصلت: ٤٣.

نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكَّتهم، فلا يظنَّ أحدٌ أن يخلص من الألم البتَّة. وهذا أصلٌ عظيم، فينبغي للعاقل أن يعرفه، وهذا يحصل لكل أحد، فإن الإنسان مدنيّ الطبع، لا بدَّ له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات يطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذَّبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارةً منهم وتارةً من غيرهم.

ومن اختبر أحواله وأحوال الناس وجدَ من هذا شيئًا كثيرًا، كقوم يريدون الفواحش والظلم، ولهم أقوال باطلة في الدين أو شرك، فهم مرتكبون بعض ما ذكره الله من المحرمات في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ (١). وهم في مكان مشترك، كدار جامعة أو خانٍ أو قيسرية أو مدرسة أو رباط أو قرية أو درب أو مدينة فيها غيرهم، وهم لا يتمكنون مما يريدون إلا بموافقة أولئك، أو بسكوتهم عن الإنكار عليهم، فيطلبون من أولئك الموافقة أو السكوت، فإن وافقوهم أو سكتوا سلّموا من شرهم في الابتلاء، ثم قد يتسلطون هم أنفسهم على أولئك يهينونهم ويعاقبونهم أضعاف ما كان أولئك يخافونه ابتداءً، كمن يطلب منه شهادة الزور أو الكلام في الدين بالباطل، إما في الخبر، وإما في الأمر أو المعاونة على الفاحشة والظلم، فإن لم يُجِبهم آذوه وعادّوه، وإن أجابهم فهم أنفسهم يتسلطون عليه فيُهينونه ويؤذونه أضعاف ما كان يخافه، وإلا عذب بغيرهم.

(١) سورة الأعراف: ٣٣.

فالواجب ما في حديث عائشة الذي بَعَثَتْ به إلى معاوية، ويُروى موقوفاً ومرفوعاً^(١): «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس - وفي لفظ: رضي الله عنه وأرضى عنه الناس -، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُعْنُوا عنه من الله شيئاً - وفي لفظ: عاد حامدُه من الناس ذامًا -».

وهذا يجري فيمن يُعِين الملوك والرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يُعِين أهل البدع المنتسبين إلى العلم والدين على بدعهم. فمن هداه الله وأرشده امتنع من فعل المحرم وصبر على أذاهم وعداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما جرى للرسول وأتباعهم مع من آذاهم وعاداهم، مثل المهاجرين في هذه الأمة ومن ابتلي من علمائها وعبادها وتجارها وولاتها.

وقد يجوز في بعض الأمور إظهار الموافقة وإبطان المخالفة، كالمُكْرَه على الكفر، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع، إذ المقصود هنا أنه لا بد من الابتلاء بما يؤذي الناس، فلا خلاص لأحدٍ مما يؤذيه البتة. ولهذا ذكر الله تعالى في غير موضع أنه لا بد أن يبتلي الناس، والابتلاء يكون بالسراء والضراء، ولا بد أن يبتلي الإنسان بما يسرُّه ويسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً، قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾^(٣)، وقال تعالى:

(١) أخرجه بالوجهين الترمذي (٢٤١٤). وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٦٦) وأحمد في «الزهد» (ص ١٦٥) والحميدي في «مسنده» (١٢٩/١) وعبد بن حميد في «مسنده» (١٥٢٤) من طرق مختلفة بالفاظ متقاربة.

(٢) سورة الكهف: ٧.

(٣) سورة الأعراف: ١٦٨.

﴿ فَأَمَّا يَا نِينَصَةَ كُمْ مَنِّي هُدَى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٣) وَمَنْ أَعْرَضَ
 عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١٤) ، وقال
 تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
 الصَّادِقِينَ ﴾ (١٥) . هذا في آل عمران (٢) ، وقد قال قبل ذلك في البقرة ،
 فَإِنَّ الْبَقْرَةَ نَزَلَ أَكْثَرُهَا قَبْلَ آلِ عِمْرَانَ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
 يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ
 وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٣) .

وذلك أن النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء ، كالذهب
 الذي لا يخلص جيده من رديئه حتى يُفْتَنَ في كِبَرِ الامتحان ، إذ كانت
 النفس جاهلة ظالمة ، وهي منشأ كل شرٍّ يحصل للعبد ، فلا يحصل له
 شرٌّ إلا منها ، قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ
 نَفْسِكَ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ
 أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ
 فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ
 اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٧) ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ
 بِقَوْمٍ سُوءَ أَفْلًا مَرَدَّدًا لَمْ يَمُرَّهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ (٨) .

(١) سورة طه : ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) الآية ١٤٢ .

(٣) سورة البقرة : ٢١٤ .

(٤) سورة النساء : ٧٩ .

(٥) سورة آل عمران : ١٦٥ .

(٦) سورة الشورى : ٣٠ .

(٧) سورة الأنفال : ٥٣ .

(٨) سورة الرعد : ١١ .

وقد ذكر عقوبات الأمم من آدم إلى آخر وقت، وفي كل ذلك يقول: إنهم ظلموا أنفسهم فهم الظالمون لا المظلومون، وأول من اعترف بذلك أبواهم، قالوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) (١)، وقال لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥) (٢)، وإبليس إنما تبعه الغواة منهم، كما قال: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٤) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ (٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤). والغوي: اتباع هوى النفس.

وما زال السلف معترفين بذلك كقول أبي بكر وعمر وابن مسعود (٥): أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه.

وفي الحديث الإلهي حديث أبي ذر (٦) الذي يرويه الرسول عن ربه عز وجل: «يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

وفي الحديث الصحيح (٧) حديث سيد الاستغفار أن يقول العبد:

(١) سورة الأعراف: ٢٣.

(٢) سورة ص: ٨٥.

(٣) سورة الحجر: ٣٩ - ٤٠.

(٤) سورة الحجر: ٤٢.

(٥) انظر «جامع بيان العلم» (٢/٨٣٠، ٨٥٢، ٩١١) و«الإحكام» لابن حزم (٦/٥٠).

و«تلخيص الحبير» (٤/١٩٥).

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٧٧). ولشيخ الإسلام شرح عليه، انظر «مجموع الفتاوى» (١٨/١٣٦ - ٢٠٩).

(٧) أخرجه البخاري (٦٣٠٦، ٦٣٢٣) عن شذاد بن أوس.

«اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة».

وفي حديث أبي بكر الصديق^(١) من طريق أبي هريرة وعبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ علمه ما يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه: «اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ربّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشرّ الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم». قلّه إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك.

وكان النبي ﷺ يقول في خطبته^(٢): «الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا». وقد قال النبي ﷺ: «إني آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون تهافت الفراش»^(٣). شبّههم بالفراش لجهله وخفة حركته، وهي صغيرة النفس، فإنها جاهلة سريعة الحركة.

(١) أخرجه أحمد (١٩٦/٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٠٤) والترمذي (٣٥٢٩) من طريق أبي راشد الحبراني عن عبدالله بن عمرو في صحيفته. وأخرجه أحمد (١٤/١) من طريق مجاهد عن أبي بكر. وأخرجه أبو داود (٥٠٨٣) من طريق شريح عن أبي مالك الأشعري.

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٢/١، ٤٣٢) وأبو داود (٢١١٨) والنسائي (١٠٤/٣) من طريق أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود. وله طرق أخرى عن ابن مسعود وشواهد جمعها الشيخ الألباني وتكلم عليها في رسالة مفردة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) عن أبي هريرة.

وفي الحديث: «مثل القلب مثل ريشة مُلقاة بأرض فلاة»^(١).
وفي حديث آخر: «لَلْقَلْبِ أَشَدُّ تَقَلُّبًا مِنَ الْقَدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلِيَانًا»^(٢).
ومعلوم سرعة حركة الريشة والقدر مع الجهل. ولهذا يقال لمن أطاع
من يُغويهِ: إنه استخفّه. قال عن فرعون: إنه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ
فَاطَاعُوهُ﴾^(٣). وقال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ
الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾^(٤)، فان الخفيف لا يثبت بل يطيش، وصاحب
اليقين ثابت. يقال: أيقن، إذا كان مستقرًا، واليقين: استقرار الإيمان
في القلب علمًا وعملاً، فقد يكون علم العبد جيدًا، لكن نفسه لا
تصبر عند المصائب بل تطيش. قال الحسن البصري: إذا شئت أن
ترى بصيرًا لا صبر له رأيتَه، وإذا شئت أن ترى صابرًا لا بصيرة له
رأيتَه، فإذا رأيتَ بصيرًا صابرًا فذاك. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَمَةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٥).

ولهذا تُشبه النفس بالنار في سرعة حركتها وإفسادها، وغضبها
وشهوتها من النار، والشيطان من النار. وفي السنن^(٦) عن النبي ﷺ
أنه قال: «الغضب من الشيطان، والشيطان من النار، وإنما تُطفأ النارُ
بالماء، فإذا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ». وفي الحديث الآخر^(٧):

-
- (١) أخرجه أحمد (٤١٩/٤) وابن ماجه (٨٨) من حديث أبي موسى الأشعري.
(٢) أخرجه أحمد (٤/٦) عن المقداد بن الأسود.
(٣) سورة الزخرف: ٥٤.
(٤) سورة الروم: ٦٠.
(٥) سورة السجدة: ٢٤.
(٦) أخرجه أبو داود (٤٧٨٤) وأحمد (٢٢٦/٤) عن محمد بن عطية السعدي عن
أبيه مرفوعًا. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (ص ٤٧٥).
(٧) أخرجه أحمد (١٩/٣، ٦١) والترمذي (٢١٩١) عن أبي سعيد الخدري. =

«الغضب جمرةٌ تُوقَدُ في جوف ابن آدم، ألا ترى إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه»، وهو غليان دم القلب لطلب الانتقام. وفي الحديث المتفق على صحته^(١): «الشیطان يجري من ابن آدم مجرى الدم».

وفي الصحيحين^(٢) أن رجلين استبَّتا عند النبي ﷺ وقد اشتدَّ غضبُ أحدهما، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم». وقد قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَنزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾^(٥).

* * *

= وضعفه العراقي في «تخريج الإحياء» (١٦٧/٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٥، ٢٠٣٨) ومواضع أخرى) ومسلم (٢١٧٥) عن صفية بنت حبي.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٨٢) ومسلم (٢٦١٠) عن سليمان بن صرد.

(٣) سورة فصلت: ٣٤ - ٣٦.

(٤) سورة الأعراف: ١٩٩ - ٢٠٠.

(٥) سورة المؤمنون: ٩٦ - ٩٨.

obeikandi.com

مسألة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ

حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾

obeikandi.com

مسألة

في قوله عز وجل ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨) الآية (١).

الجواب

الحمد لله . المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية النعم والمصائب ، كما في قوله تعالى ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ (٤) ، وقال تعالى عن قوم فرعون : ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ (٥) .

وهذه الآية نزلت في سياق الأمر بالجهاد وذم المنافقين ، فقال تعالى : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٦) . كانوا إذا أصابهم نصرٌ ورزقٌ ونحو ذلك قالوا : هذا من الله ، وإذا أصابهم خوفٌ وقحطٌ ونحو ذلك قالوا : هذا من

(١) سورة النساء : ٧٨ .

(٢) سورة الأعراف : ١٦٨ .

(٣) سورة آل عمران : ١٢٠ .

(٤) سورة التوبة : ٥٠ .

(٥) سورة الأعراف : ١٣١ .

(٦) سورة النساء : ٧٨ .

محمدٍ بسبب الدين الذي جاء به، كما قال قوم فرعون في حق موسى، فقال الله تعالى: ﴿فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨)، فإن محمداً إنما جاءهم بالهدى والحق، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر.

ثم قال^(١): ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نصرٍ ورزقٍ ونحو ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ من خوفٍ وجذبٍ وغير ذلك ﴿فَإِنَّ نَفْسِكَ﴾ أي بذنوبك، وكان ذلك بقضاء الله وقدره، ولكن القدر نؤمن به ولا نحتج به، فليس للعبد على الله حجة، بل لله الحجة البالغة.

ونظير هذا قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ آيَاتِكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٢)، وقوله: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَاقِدَتْ آيَاتِهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (٣)، وقوله: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّا هَذَا قَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (٤).

وفي الصحيح^(٥): «إن الله يقول: يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». وفي سيد الاستغفار أن يقول العبد: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي، وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ». من قال ذلك إذا أصبح موقناً به فمات من يومه دخل الجنة، ومن قاله إذا

(١) سورة النساء: ٧٩.

(٢) سورة الشورى: ٣٠.

(٣) سورة الروم: ٣٦.

(٤) سورة آل عمران: ١٦٥.

(٥) مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر.

أمسى موقناً به فمات من ليلته دخل الجنة . رواه البخاري^(١) .

وقوله «أبوؤ لك بنعمتك عليّ» أي أعترف وأقرُّ بنعمتك، وأعترف وأقرُّ بذنوبي . فمن قال: إنه لا يؤاخذ، أو إنه لم يُذنب ولم يُخطيء، أو إن من شهد الحقيقة سقط الأمر والنهي والعقاب والثواب -: فهو مشركٌ أكفر من اليهود والنصارى، ومن قال: إن الله لم يُقدر ذلك ولم يقضه، فهو من مجوس هذه الأمة القدرية . ومن آمن بأن كلَّ شيء بقضاء الله وقدره، وعلم أن القدر يؤمن به ولا يُحتجُّ به على الله، وأنه ليس للعبد على ربه حُجَّة، بل لله الحجة البالغة، فإذا عمِلَ حسنةً شكر الله عليها، وإذا عمِلَ سيئةً استغفر الله منها -: فهو موحد .

ومن قال: إن الحسنات والسيئات في هذه الآية المراد بها الطاعات والمعاصي، كما في قوله ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾^(٢) فهو مخطيءٌ غلطٌ، فإن هذا يلزم منه تناقض القرآن، فإنه قد أخبر أن كلاً من عند الله، وأخبر أن الحسنات من الله والسيئات من نفسك . وأيضاً فإنه قال «ما أصابك»، ولم يقل «ما أصبت»، فلو أراد أفعال العباد لقال: «ما أصبت» أو «ما كسبت» أو «ما فعلت» ونحو ذلك . ولكن أراد النعم والمصائب، وهي جميعها من عند الله، لكن النعم من إنعامه وإحسانه، والمصائب بسبب ذنوب العباد، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٣) . والله أعلم .

أجاب به أحمد بن تيمية أيده الله تعالى .

(١) برقمي (٦٣٠٦ ، ٦٣٢٣) عن شداد بن أوس .

(٢) سورة الأنعام: ١٦٠ .

(٣) سورة الأنفال: ٣٣ .

obeikandi.com

قاعدة حسنة

في الباقيات الصالحات وبيان اقتران التهليل
بالتكبير والتسبيح بالتحميد

obeikandi.com

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وصحبه أجمعين، وسلّم تسليمًا كثيرًا دائمًا إلى يوم الدين.

فصل

في الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر
فقد ثبت في الصحيح^(١) عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الكلام بعد
القرآن أربعٌ وهنّ من القرآن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله
أكبر». وقد ذكرنا ما يتعلق بمعانيها في مواضع^(٢)، والمقصود هنا أن نقول:
التسبيح مقرون بالتحميد، والتهليل مقرون بالتكبير، فإن الله تعالى يذكر
في غير موضع التسبيح بحمده، كقول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾^(٣)،
وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(٤)، وقوله تعالى:
﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ
الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾^(٦)، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾^(٧).

ولا ريب أن الصلاة الشرعية تتضمن ما أمر به من التسبيح بحمده،
كما قد بين النبي ﷺ ذلك في مثل حديث جرير المتفق عليه^(٨) أنه

-
- (١) مسلم (٢١٣٧) عن سمرة بن جندب.
 - (٢) انظر «مجموع الفتاوى» (٢٤/٢٣١ وما بعدها).
 - (٣) سورة البقرة: ٣٠.
 - (٤) سورة غافر: ٧.
 - (٥) سورة البقرة: ٣٠.
 - (٦) سورة طه: ١٣٠.
 - (٧) سورة الطور: ٤٨.
 - (٨) البخاري (٧٤٣٤، ٧٤٣٥، ٧٤٣٦ ومواضع أخرى) ومسلم (٦٣٣).

نظر إلى القمر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُصامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ (١).

وأيضاً ففي صحيح مسلم (٢) عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ أَيُّ الكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده». وفي الصحيحين (٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وأما التكبير فهو مقرونٌ بالتهليل في الأذان، فإن المؤذن يكبر ويهلل، وفي تكبير الإشراف: كان إذا علأ نشراً كبر ثلاثاً وقال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آتبون تائبون عابدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده». وهو في الصحيحين (٤). وكذلك على الصفا والمروة، وكذلك إذا ركب دابة، وكذلك في تكبير الأعياد.

والتكبير مشروعٌ في الأماكن العالية، والتسبيح عند الانخفاض، كما في السنن عن جابر (٥) قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذا علونا

(١) سورة ق: ٣٩.

(٢) برقم (٢٧٣١) عن أبي ذر.

(٣) البخاري (٧٥٦٣) ومواضع أخرى) ومسلم (٢٦٩٤).

(٤) البخاري (١٧٩٧) ومواضع أخرى) ومسلم (١٣٤٤) عن ابن عمر.

(٥) أخرجه أيضاً البخاري (٢٩٩٣، ٢٩٩٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٣٩/٦) والدارمي (٢٦٧٧) وابن خزيمة (٢٥٦٢).

كَبَرْنَا، وَإِذَا هَبَطْنَا سَبَّحْنَا». فَوُضِعَت الصَّلَاةُ عَلَى ذَلِكَ، وَالْمُصَلِّي فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ يُسَبِّحُ، وَيُكَبِّرُ فِي الْخَفْضِ وَالرَّفْعِ، كَمَا جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَمَنْ اقْتَرَانَ التَّهْلِيلَ بِالتَّكْبِيرِ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «يَا عَدِي! مَا يُفِرُّكَ؟ أَيْفِرُّكَ أَنْ يَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ؟ مَا يُفِرُّكَ؟ أَيْفِرُّكَ أَنْ يَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنْ اللَّهِ؟». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ ^(١) وَغَيْرُهُمَا.

فَنَقُولُ: التَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ يَجْمَعُ النَّفْيَ وَالْإِثْبَاتَ، نَفْيُ الْمَعَائِبِ وَإِثْبَاتُ الْمَحَامِدِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ التَّعْظِيمَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ^(٢)، وَقَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ^(٣). وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْعَلُوا هَذِهِ فِي رُكُوعِكُمْ، وَهَذِهِ فِي سُجُودِكُمْ» ^(٤). وَقَالَ: «أَمَّا الرُّكُوعُ فَعِظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ» ^(٥). فَالتَّسْبِيحُ يَتَضَمَّنُ التَّنْزِيهَ الْمُسْتَلْزَمَ لِلتَّعْظِيمِ، وَالحَمْدُ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْمَحَامِدِ الْمَتَضَمَّنِ لِنَفْيِ نَقَائِصِهَا.

وَأَمَّا التَّهْلِيلُ وَالتَّكْبِيرُ فَالتَّهْلِيلُ يَتَضَمَّنُ اخْتِصَاصَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَمَا يَسْتَلْزِمُ الْإِلَهِيَّةَ فَهَذَا لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ، بَلْ هُوَ مُخْتَصٌّ بِهِ، وَالتَّكْبِيرُ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٧٨/٤) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) مِنْ طَرِيقِ سَمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنِ عَبَّادِ بْنِ حَبِيشٍ عَنِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ.

(٢) سُورَةُ الْأَعْلَى: ١.

(٣) سُورَةُ الْوَاقِعَةِ: ٧٤، ٩٦ وَسُورَةُ الْحَاقَةِ: ٥٢.

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٥٥/٤) وَأَبُو دَاوُدَ (٨٦٩) وَابْنُ مَاجَةَ (٨٨٧) عَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرِ الْجَهْنِيِّ.

(٥) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٤٧٩) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

يتضمن أنه أكبر من كل شيء، فما يَحْصُلُ لغيره من نوع صفات الكمال - فإنَّ المخلوقَ متصفٌ بأنه موجود وأنه حيٌّ وأنه عليم قدير سميع بصير إلى غير ذلك - فهو سبحانه أكبر من كل شيء، فلا يساويه شيء في شيء من صفات الكمال، بل هي نوعان: نوع يختصُّ به ويمتنع ثبوته لغيره، مثل كونه ربَّ العالمين، وإله الخلق أجمعين، الأول الآخر الظاهر الباطن القديم الأزلي الرحمن الرحيم مالك الملك عالم الغيب والشهادة، فهذا كله هو مختصُّ به، وهو مستلزم لاختصاصه بالإلهية، فلا إله إلا هو، ولا يجوز أن يُعبد إلا هو، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يُرغَب إلا إليه، ولا يُخشَى إلا هو. فهذا كلُّه من تحقيق «لا إله إلا الله».

وأما «الله أكبر» فكل اسم يتضمن تفضيله على غيره، مثل قوله: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾^(١)، وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٣) و ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾^(٤)، كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم: «أَيْفِرُّكَ أَنْ يَقَالَ: اللهُ أكبر؟ فهل من شيء أكبر من الله؟».

وأما قول بعض النحاة إن «أكبر» بمعنى كبير، فهذا غلطٌ مخالفٌ لنصِّ الرسول ﷺ ولمعنى الاسم المنقول بالتواتر. وكذلك قول بعض الناس إنه أكبر مما يُعَلِّم ويوصف ويُقال، جعلوا معنى «أكبر» أنه أكبر مما في القلوب والألسنة من معرفته ونعته، أي هو فوق معرفة

(١) سورة العلق: ٣.

(٢) سورة المؤمنون: ١٤.

(٣) سورة الأعراف: ١٥١، وسورة الأنبياء: ٨٣.

(٤) سورة الأعراف: ١٥٥.

العارفين، وهذا المعنى صحيح، لكن ليس بطائل، فإن الأنبياء والرسل والملائكة والجنة والنار وما شاء الله من مخلوقاته هي أكبر مما يعرفه الناس، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١)، وقال تعالى: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(٢).

فبعض مخلوقاته هي أكبر في معرفة الخلق من البعض، بخلاف ما إذا قيل إنه أكبر من كل شيء، فهذا لا يشركه فيه غيره. وبذلك فسّر النبي ﷺ هذه الكلمة في مخاطبته لعدي بن حاتم حيث قال: «أَيُّفَرَكُ أَنْ يُقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ؟».

وعلى هذا فعلمه أكبر من كل علم، وقدرته أكبر من كل قدرة، وهكذا سائر صفاته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾^(٣). فشهادته أكبر الشهادات.

فهذه الكلمة تقتضي تفضيله على كل شيء مما تُوصف به الأشياء من أمور الكمالات التي جعلها هو سبحانه لها. وأما التهليل فيتضمن تخصيصه بالإلهية، ليس هناك أحدٌ يتصف بها حتى يقال إنه أكبر منه فيها، بل لا إله إلا الله. وهذه تضمنت معنى نفي الإلهية عمّا سواه وإثباتها له، وتلك تضمنت أنه أكبر مطلقاً، فهذه تخصيص وهذه تفضيل لما تضمنه التسييح والتحميد من النفي والإثبات، فإن كل ذلك إما أن يكون مختصاً به، أو ليس كمثله أحدٌ فيه.

(١) سورة السجدة: ١٧.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٨٠) ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة.

(٣) سورة الأنعام: ١٩.

ولهذا كان التكبير مشروعاً على مشاهدة ماله نوع من العظمة في المخلوقات، كالأماكن العالية، والشياطين تهرب عند سماع الأذان، والحريق يُطفأ بالتكبير، فإنَّ مَرَدَةَ الإنس والجن يستكبرون عن عبادته وَيَعْلُونَ عليه وَيُحَادُّونَهُ، كما قال عن موسى وجاءهم رسول كريم: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ﴾^(١). فالنفوس المتكبرة تَذِلُّ عند تكبيره سبحانه.

والتهليل يمنع أن يُعْبَدَ غيره، أو يُرَجَى أو يُخَافَ أو يُدْعَى، وذلك يتضمن أنه أكبر من كلِّ شيء، وأنه مستحقُّ لصفات الكمال التي لا يستحقها غيره، فهي أفضل الكلمات، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبةً أو ستون، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»^(٢).

وفي حديث «الموطأ»^(٣): «أفضل ما قُلْتُ أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير». وفي سنن ابن ماجه^(٤) وكتاب ابن أبي الدنيا^(٥) عن النبي ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله».

وهذه الكلمة هي أساس الدين، وهي الفارقة بين أهل الجنة

(١) سورة الدخان: ١٩.

(٢) أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) عن أبي هريرة.

(٣) ٤٢٢/١، ٤٢٣ عن طلحة بن عبيدالله بن كريب مرسلًا. وصححه الألباني لشواهده في «الصحيحة» (١٥٠٣).

(٤) برقم (٣٨٠٠) عن جابر. وأخرجه أيضًا الترمذي (٣٣٨٣) والنسائي في الكبرى (٢٠٨/٦).

(٥) كتاب الشكر (١٠٢).

وأهل النار، كما في صحيح مسلم^(١) عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «الموجبتان: من مات لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يُشرك بالله شيئاً دخل النار». وفي الصحيح^(٢) عنه: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة». وفي الصحيح^(٣) أيضاً: «لَقَّنُوا موتاكم لا إله إلا الله». وهي الكلمة الطيبة التي ضربها الله مثلاً كشجرة طيبة، وهي بُعِثَ بِهَا جَمِيعُ الرُّسُلِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٤)، ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾^(٥).

وهي الكلمة التي جعلها إبراهيم في عَقِبِهِ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٦). وهي دين الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٧)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٨).

وكلُّ خطبة لا تكون فيها شهادة فهي جَذْمَاءٌ، كما في سنن الترمذي^(٩) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كل خطبة ليس فيها تشهدٌ فهي

(١) برقم (٩٣).

(٢) مسلم (٢٦) عن عثمان.

(٣) مسلم (٩١٦) عن أبي سعيد الخدري.

(٤) سورة الأنبياء: ٢٥.

(٥) سورة الزخرف: ٤٥.

(٦) سورة الزخرف: ٢٨.

(٧) سورة آل عمران: ١٩.

(٨) سورة آل عمران: ٨٥.

(٩) برقم (١١٠٦). وأخرجه أيضاً أحمد (٣٠٢/٢، ٣٤٣) وأبو داود (٤٨٤١).

كاليد الجذماء». والحمد مفتاح الكلام، كما في سنن أبي داود^(١) عن النبي ﷺ: «كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد فهو أجزم». ولهذا كانت السنة في الخطب أن تُفتَح بالحمد، ويُختم ذكرُ الله بالتشهد، ثم يتكلم الإنسان بحاجته، وبها جاء التشهد في الصلاة أوله: «التحيات لله»، وآخره: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسولُهُ».

وفاتحة الكتاب نصفان: نصفٌ لله، ونصفٌ للعبد، ونصفُ الربِّ أوله حمدٌ وآخره توحيدٌ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصفُ العبد هو دعاء، وأوله توحيدٌ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

والتكبير والتهليل والتسبيح مقدمة التحميد، فالمؤذن يقول: «الله أكبر الله أكبر»، ثم يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله»، ويختم الأذان بقوله: «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله». وكذلك تكبيرات الإشراف والأعياد تُفتَح بالتكبير وتُختم بالتوحيد، فالتكبير بساطٌ. وكذلك التسبيح مع التحميد «سبحان الله وبحمده»، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، لأن التسبيح يتضمن نفي النقائص والعيوب، والتحميد يتضمن إثبات صفات الكمال التي يُحمد عليها.

فصل

وهو في نفس الأمر لا إله غيره، وهو أكبر من كل شيء، وهو المستحق للتحميد والتزويه، هو متصف بذلك كله في نفس الأمر. فالعباد لا يثبتون له بكلامهم شيئًا لم يكن ثابتًا له، بل المقصود بكلامهم تحقيق ذلك في أنفسهم، فإنهم يسعدون السعادة التامة، إذا

(١) برقم (٤٨٤٠) عن أبي هريرة. وأخرجه أيضًا أحمد (٣٥٩/٢) وابن ماجه (١٨٩٤).

صار أحدهم ليس في نفسه إله إلا الله خَلَصَ من شرك المشركين، فإن أكثر بني آدم كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (١)، فهم يُقَرِّون أنه ربّ العالمين لا ربَّ غيره، ومع هذا يُشركون به في الحبِّ أو التوكُّل أو الخوف أو غير ذلك من أنواع الشرك.

وأما التوحيد أن يكون الله أحبَّ إليه من كلِّ ما سواه، فلا يُحبُّ شيئاً مثل ما يُحبُّ الله، ولا يخافه كما يخاف الله، ولا يرجوه كما يرجوه، ولا يُجِلُّه ويُكرِّمه مثل ما يُجِلُّ الله ويُكرِّمه، ومن سَوَّى بينه وبين غيره في أمر من الأمور فهو مشرك، إذ كان المشركون لا يُسَوِّون بينه وبين غيره في كلِّ [شيء]، فإن هذا لم يقله أحدٌ من بني آدم، وهو ممتنع لذاته امتناعاً معلوماً لبني آدم، لكن منهم من جَحَدَه وَفَضَّلَ عليه غيره في العبادة والطاعة، لكن مع هذا لم يُثبته ويُسوِّ بينه وبين غيره في كلِّ شيء، بل في كثير من الأشياء. فمن سَوَّى بينه وبين غيره في أمر من الأمور فهو مشركٌ، قال الله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (٢) أي يعدلون به غيره، يقال: عدَلَّ به أي جعله عديلاً لكذا ومثلاً له. وقال تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمِ لِلْغَاوِينَ ﴾ (٣) إلى قوله: ﴿ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ (٤).

(١) سورة يوسف: ١٠٦.

(٢) سورة الأنعام: ١.

(٣) سورة الشعراء: ٩١ - ٩٨.

(٤) سورة البقرة: ١٦٥.

فلا إله إلا هو سبحانه، وما سواه ليس بإله، لكن المشركون عبدوا معه آلهة، وهي أسماء سمّوها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، كما يُسمّي الإنسانُ الجاهلَ عالمًا، والكاذبَ صادقًا، ويكون ذلك عنده لا في نفس الأمر. وهؤلاء آلهة في نفوس المشركين بهم ليسوا آلهة في نفس الأمر. ولهذا كان ما في قلوبهم من الشرك هو إفكًا، قال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيْفَكَاءَ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾^(١)، وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفكًا ﴿٢﴾﴾^(٢)، وقال: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٣﴾﴾^(٣)، وقال هود لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾^(٤).

والموحّد صادق في قوله «لا إله إلا الله»، وكلّما كرّر ذلك تحقّق قلبه بالتوحيد والإخلاص، وكذلك قوله «الله أكبر»، فإنه تعالى كلُّ ما يخطر بنفس العباد من التعظيم فهو أكبر منه، الملائكة والجن والإنس، فإنه أي شيء قُدّر في الأنفس من التعظيم كان دون الذي هو متصف به، كما أنه سبحانه فوق ما يُثني عليه العباد، كما قال أعلمُ الناس به: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٥).

فكلّما قال العبد «الله أكبر» تحقّق قلبه بأن يكون الله في قلبه أكبر

(١) سورة الصافات: ٨٥ - ٨٦.

(٢) سورة العنكبوت: ١٧.

(٣) سورة الكهف: ١٥.

(٤) سورة هود: ٥٠.

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٦) عن عائشة.

من كل شيء، فلا يبقى لمخلوقٍ على القلب ربّانيةٌ تُساوي ربّانيةَ الرب، فضلاً عن أن يكون مثلها، وهذا داخل في التوحيد لا إله إلا الله، فلا يكون في قلبه لمخلوقٍ شيء من التأله لا قليل ولا كثير، بل التأله كله لله، ولكن المخلوق عنده نوعٌ من القدر والمنزلة والمحبة، وليست كقدر الخالق، والمحبة المأمور بها هي الحب لله، كحب الأنبياء والصالحين، فهو يحبهم لأن الله أمر بحبهم، فهذا هو الحب لله. فأما من أحبهم مع الله فهذا مشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾^(١). فالحبُّ في الله إيمانٌ، والحبُّ مع الله شركٌ.

وكذلك إذا قال «سبحان الله والحمد لله» فقد نزهه الربّ، فنزهه قلبه أن يصف الربّ بما لا ينبغي له، فكلمًا سبح الربّ تنزهت نفسه عن أن يصف الربّ بشيء من السوء، كما قال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٢)، وقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾^(٣).

فهو سبحانه سبح نفسه عما يصفه المفترون والمشركون، فإذا سبح الربّ كان قد زكى نفسه. وقد سمى الله الأعمال الصالحة زكاة وتزكية في مثل قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾^(٤). قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾^(٥) قال: يعني بالزكاة

(١) سورة البقرة: ١٦٥.

(٢) سورة الصافات: ١٨٠.

(٣) سورة الإسراء: ٤٣.

(٤) سورة فصلت: ٦ - ٧.

(٥) سورة البقرة: ١٢٩.

طاعة الله والإخلاص^(١)، فجمع بين التزكية من الكفر والذنوب. وقال مقاتل بن حيان: «يزكيكم»: يطهركم من الذنوب. هكذا قال في آية البقرة^(٢)، وقال في آية الصيف^(٣): يطهّره من الذنوب والكفر. وقال ابن جريج: يطهّره من الشرك ويخلّصهم منه. وقال السدي: يأخذ زكاة أموالهم^(٤). ففسّروا الآية بما يعمُّ زكاة الأموال وغيرها من الأعمال والأفعال، فالإخلاص والطاعة وتزكيتهم من الذنوب والكفر أعظم مقصود الآية. والمشركون نجس، والصدقة من تمام التطهر والزكاة، كما قال تعالى: ﴿حُدِّثْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٥).

وكذلك قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾^(٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ قال: هم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله^(٧). ورؤي عن عكرمة نحو ذلك. وقال قتادة: لا يُقرُّون بها ولا يؤمنون بها. وكذلك قال السدي: لا يدينون بها، ولو زكّوا وهم مشركون لم ينفعهم. وقال معاوية بن قرّة: ليسوا من أهلها. وقد قال موسى لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكِّيَ﴾^(٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى^(٩)، وقال عن الأعمى: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزُكِّي﴾^(٩)،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨٨/٣).

(٢) برقم ١٥١.

(٣) هي في سورة آل عمران: ١٦٤.

(٤) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (٨٨/٣) و«زاد المسير» (١٤٦/١).

(٥) سورة التوبة: ١٠٣.

(٦) سورة فصلت: ٦ - ٧.

(٧) أخرجه الطبري (٦٠/٢٤)، وكذلك روى الآثار التي ذكرها المؤلف هنا.

(٨) سورة النازعات: ١٨ - ١٩.

(٩) سورة عبس: ٣.

وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١)، وقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ
مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾^(٢).

وكذلك الحمد، كلما حمد العبدُ ربَّه تحققَ حمدُه في قلبه معرفةً
بمحامدِه ومحبةً له وشكرًا له. والألف واللام في قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾
فيها قولان^(٣)، قيل: هي للجنس، كما ذكره بعض المفسرين من المعتزلة،
وتبعه عليه بعض المنتسبين إلى السنة. والثاني - وهو الصحيح - : أنها
للاستغراق، فالحمد كله لله، كما جاء في الأثر: «لك الحمد كله،
ولك الملك كله». فله الحمد حمد مستقل، وله الملك ملك مستقل،
ولكن هو سبحانه يُؤتي الملك من يشاء، والذي يُؤتيه هو من ملكه،
وكلُّ ما تصرف فيه العبد فهو من ملك الربّ، وهو مستقل بالملك،
ليس هذا لغيره، كذلك الحمد هو مستقل بالحمد كله، فله الحمد كله
وله الملك كله، وكلُّ ما جاء به الإذن من موجود فله الحمد عليه،
وكلُّ ما يجعله للعباد مما يُحمدون عليه فله الحمد عليه، وإذا ألهمهم
الحمد فهو الذي جعلهم حامدين.

والمعتزلة لا يُقرُّون بأنه جعل الحامدَ حامدًا والمصلِّيَ مصلِّيًا
والمسلمَ مسلمًا، بل يُثبتون وجود الأعمال الصالحة من العبد لا من
الله، فلا يستحق الحمد على تلك الأعمال على أصلهم، إذ كان
ما أعطاهم من القدرة والتمكين وإزاحة العلل قد أعطى الكفار مثله،
لكن المؤمنون استقلوا بفعل الحسنات، كالأب الذي يُعطي ابنه

(١) سورة الشمس: ٩ - ١٠.

(٢) سورة طه: ٧٤ - ٧٦.

(٣) انظر الكشاف (٨/١) والمحزر الوجيز (٦٣/١) والانتصاف (٨/١) والقرطبي

(١/١٣٣).

مالاً، فهذا يُنْفِقُه في الطاعة، وهذا يُنْفِقُه في المعصية. فهو عندهم لا يُمدَح على إنفاق هذا الابن، كما لا يُذَمُّ على إنفاق الآخر.

وأما أهل السنة فيقولون كما أخبر الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾^(١)، وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(٢) الآية. وقال الخليل: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾^(٣)، وقال هو وابنه إسماعيل: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾^(٤). ويحمدون الله حمدَ النعمة وحمدَ العبادة، كما قد بسط هذا في الكلام في الشكر.

وهو سبحانه جعل مَنْ شاء من عباده محموداً، ومحمداً سيد المحمودين، ومحمدٌ تكون صفاته المحمودة أكثر، وأحمدٌ يكون أحمدَ من غيره، فهذا أفضل، وذاك أكثر. وهو سبحانه جعله محمداً وأحمدَ. فهو المحمود على ذلك، وحمدُ أهل السموات والأرض جزءٌ من حمده، فإن حمدَ المصنوع حمدُ صانعه، كما أن كلَّ ملكٍ هو جزءٌ من ملكه، فله الملك وله الحمد.

والحمد إنما يتم بالتوحيد، وهو مناط التوحيد ومقدمة له، ولهذا يُفْتَحُ به الكلام، ويُتَى بالتشهد. وكلُّ كلام لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجزم، وكل خطبة ليس فيها تشهّدٌ فهي كاليد الجذماء. وإذا كان الحمد كله له^(٥) بخلاف ما إذا أثبت جنس الحمد من غير

(١) سورة الحجرات: ٧.

(٢) سورة الأعراف: ٤٣.

(٣) سورة ابراهيم: ٤٠.

(٤) سورة البقرة: ١٢٨.

(٥) هنا بياض في الأصل بقدر كلمتين.

استغراق، فان هذا لا يثبت خصائص الربّ التي بها يمتاز عن غيره، فإن الحمد إذا كان للجنس أوجب أن يكون لغيره أفراداً من أفراد هذا الجنس، كما تقول القدرية. وأما أهل السنة فيقولون: الحمد لله كله، وإنما للعبد حمدٌ مقيّدٌ، لكون الله تعالى أنعمَ عليه، كما للعبد ملكٌ مقيّدٌ. وأما الملك المستقل والحمد المستقل والملك العام والحمد العام فهو الله رب العالمين، لا إله إلا هو، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير.

وفي السنن^(١) عن النبي ﷺ: «من قال إذا أصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحدٍ من خلقك فمنك وحدك، لا شريك لك، فلك الحمد - فقد أدّى شكر ذلك اليوم، ومن قال مثل ذلك إذا أمسى فقد أدّى شكر تلك الليلة». وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَكُفُّمِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٧﴾ ». وقال تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾^(٣) أي تجعلون شكركم على نعمة الله أنكم تضيفونها إلى غيره بقولكم «مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا». وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَاؤُهُمْ مِّنْ بَيْنِ إِلَيْهِ ﴾^(٤) الآية. وقال: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾^(٥).

وفي حديث آخر^(٦): «من قال إذا أصبح الحمد لله ربي لا أشرك

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٣) والنسائي في الكبرى (٥/٦) عن عبدالله بن غنّام.

(٢) سورة النحل: ٥٣ - ٥٤.

(٣) سورة الواقعة: ٨٢.

(٤) سورة الروم: ٣٣.

(٥) سورة غافر: ٦٥.

(٦) أخرجه البزار (كما في «كشف الأستار» ٢٤/٤) وابن السني في «عمل اليوم =

به شيئاً، أشهد أن لا إله إلا الله، ظلّ تغفر له ذنوبه حتى يُمسي، وإن قالها حين يُمسي ظلّ تُغفر له ذنوبه حتى يُصبح». رواه أبان المحاربي عن النبي ﷺ.

وقال سعيد بن جبير: إذا قرأت ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فقل «لا إله إلا الله»، وقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين». ثم قرأ هذه الآية ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقد روي نحو ذلك عن ابن عباس. وقد ثبت في الصحيحين^(١) أن النبي ﷺ كان يقول في دبر الصلاة: «لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». وهذا قد ذكره في أوائل هذه السورة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادونَ لَمَقَّتْ اللهُ أكبرُ من مَقَّتِكُمْ أَنفُسَكُم﴾ إلى قوله ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

وفي السنن نوعان من الدعاء يقال في كل منهما لمن دعا به أنه دعا الله باسمه الأعظم، أحدهما^(٣): «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، أنت الله المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام». والآخر^(٤): «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم

= والليلة» (٥٩) من حديث أبان المحاربي. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»

(١٠/١١٦): فيه أبان بن أبي عياش، وهو متروك.

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٥٩٤) فقط عن عبدالله بن الزبير.

(٢) سورة غافر: ١٠ - ١٤.

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٢٠) وأبو داود (١٤٩٥) والترمذي (٣٥٤٤) وابن ماجه

(٣٨٥٨) عن أنس.

(٤) أخرجه أحمد (٥/٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦٠) وأبو داود (١٤٩٣) والترمذي (٣٤٧٥)

وابن ماجه (٣٨٥٧) عن بريدة.

يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». والأول سؤال بأنه المحمود، والثاني سؤال بأنه الأحد، فذاك سؤالٌ بكونه محموداً، وهذا سؤالٌ بوحدانيته المقتضية توحيداً، وهو في نفسه محمودٌ يستحق الحمد، معبود يستحقُّ العبادة.

والنصف الأول من الفاتحة الذي هو نصف الربّ، أوله تحميد وآخره تعبيد، وقد بسط مثل هذا في مواضع، ويبيّن أن التحميد والتوحيد مقرونان، ولا بدّ منهما في كل خطبة، فكلّ أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجزم، وكلّ خطبةٍ ليس فيها تشهّدٌ فهي كاليد الجذماء. والحمد مقرون بالتسبيح، ولا إله إلا الله مقرون بالتكبير، فذاك تحميدُه وهذا توحيدُه. قال تعالى: ﴿فَاذْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ففي أحدهما إثبات المحامد له، وذلك يتضمن جميع صفات الكمال ومنع النقائص، وفي الآخر إثبات وحدانيته في ذلك، وأنه ليس له كفواً في ذلك.

وقد بيّنا في غير هذا الموضع أن هذين الأصلين يجمعان جميع أنواع التنزيه، فإثبات المحامد المتضمنة لصفات الكمال تستلزم نفي النقص، وإثبات وحدانيته وأنه ليس له كفواً في ذلك يقتضي أنه لا مثل له في شيء من صفات الكمال، فهو منزّه عن النقائص ومنزّه أن يماثله شيء في صفات الكمال، كما دلّ على هذين الأصلين قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾^(٢).

(١) سورة غافر: ٦٥.

(٢) سورة الاخلاص: ١ - ٤.

واسمه «الله» تضمّن جميع المحامد، فإنه يتضمن الإلهية المستلزمة لذلك، فإذا قيل «لا إله إلا الله» تضمّت هذه الكلمة إثبات جميع المحامد، وأنه ليس له فيها نظير، إذ هو إله لا إله إلا هو. والشرك كلّهُ إثباتٌ نظير الله عز وجلّ، ولهذا يُسبّح نفسه ويُعالىها عن الشرك في مثل قوله ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ١ . وقال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِمَّنْ أَلَّأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ٢ . فان الشرك قولٌ هو وصف، وعملٌ هو قصد، فنزّه نفسه عما يصفون بالقول والاعتقاد وعن أن يُعبّد معه غيره.

وأعظم آية في القرآن آية الكرسي، أولها: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٣﴾ . فقوله «الله» هو اسمه المتضمن لجميع المحامد وصفات الكمال، وقوله «لا إله إلا هو» نفى للتظراء والأمثال. وكذلك أول الكلمات العشر التي في التوراة: «يا إسرائيل! أنا الله لا إله إلا أنا»، جمع بين الإثبات ونفي الشرك، فالإثبات لردّ التعطيل، والتوحيد لنفي الشرك.

وهكذا التحميد والتوحيد، فالتحميد متضمن إثبات ما يستحقه من المحامد المتضمنة لصفات الكمال، وهو ردٌّ للتعطيل، والتوحيد ردٌّ للشرك، والتحميد يتضمن إثبات أسمائه الحسنى، وكلها محامد له، وهو يتضمن ذكر آياته وآلائه، فإنه محمودٌ على آلائه كلّها، وآياته

(١) سورة المؤمنون: ٩١ - ٩٢ .

(٢) سورة الأنبياء: ٢١ - ٢٢ .

(٣) سورة البقرة: ٢٥٥ .

كُلُّهَا مِنْ آلَائِهِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعٍ. فَهُوَ مَحْمُودٌ عَلَى كُلِّ مَا خَلَقَ، لَهُ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءُ الْأَرْضِ وَمِلْءُ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءُ مَا شَاءَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ ذَلِكَ، فَهُوَ الْحَمْدُ حَمْدًا يَمَلَأُ جَمِيعَ مَا خَلَقَهُ، وَيَمَلَأُ مَا شَاءَ خَاصَّةً بَعْدَ ذَلِكَ، إِذْ كَانَ كُلُّ مَخْلُوقٍ هُوَ مَحْمُودٌ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ مَسْبُوحٌ بِحَمْدِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١).

والتوحيد يقتضي نفْيَ كُلِّ نِدٍّ ومثلي ونظير، وهو كمال التحميد وتحقيقه ذاك إثباته بغاية الكمال ونفي النقص، وهذا نفْيٌ أن يكون له مثلٌ أو نِدٌّ.

وقوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قد فسرها كثير من المفسرين أي فصلًا بحمد ربك والثناء عليه، لم يذكر ابن الجوزي غير هذا القول، قال (٢): وسبَّح بحمد ربك أي صلَّ له بالحمد والثناء عليه. وتفسير التسبيح بالصلاة فيها أحاديث صحيحة وآثار كثيرة، مثل حديث جرير المتقدم.

وأما قوله ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقد فسروه كما تقدم، أي بحمد ربك وشكر ربك وطاعة ربك وعبادة ربك، أي بذكر ربك وشكر ربك وطاعتك ربك وعبادتك ربك، ولا ريب أن حمد الرب والثناء عليه ركنٌ في الصلاة، فإنها لا تتم إلا بالفاتحة التي نصفها الأول حمدٌ لله وثناءٌ عليه وتحميدٌ له، وقد شرع قبل ذلك الاستفتاح، وشرع الحمد عند الرفع من الركوع، وهو متضمن لحمد الله تعالى.

(١) سورة الإسراء: ٤٤.

(٢) زاد المسير (٥/٣٣٣).

وذكر طائفة من المفسرين كالثعلبي وغيره قولين، قالوا - واللفظ للبخوي^(١) - : «وسَبِّحْ بحمد ربك» أي صَلِّ بأمر ربك، وقيل: صَلِّ له بالحمد له والثناء عليه. فهذا القول الأول الذي ذكره البخوي هو مأثور عن أبي مالك أحد التابعين الذين أخذ عنهم السُّدِّي التفسير من أصحاب ابن عباس. وروى ابن أبي حاتم^(٢) عن أسباط عن السُّدِّي عن أبي مالك: قوله ﴿بِحَمْدِ﴾ أي بأمر. وتوجيه هذا أن قوله «بحمده» أي بكونه محمودًا، كما قد قيل في قول القائل «سبحان الله وبحمده»، قيل: سبحان الله ومع حمده أسبَّحه، أو أسبَّحه بحمدي له، وقيل: سبحان الله وبحمده سبَّحناه، أي هو المحمود على ذلك، كما تقول: فعلتُ هذا بحمد الله، وصلينا بحمد الله، أي بفضلته وإحسانه الذي يَسْتَحِقُّ الحمدَ عليه. وهو يرجع إلى الأول، كأنه قال: بحمدنا لله فإنه المستحق لأن نحمده على ذلك.

وإذا كان ذلك بكونه المحمود على ذلك فهو المحمود على ذلك، حيث كان هو الذي أمر بذلك وشرعه، فإذا سبَّحنا سبَّحنا بحمده، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(٣) الآية. وقد يكون القائل الذي قال: «فسبح بحمد ربك» أي بأمره أراد المأمور به، أي سبَّحه بما أمرك أن تُسبَّحه به، فيكون المعنى: سبَّح التسبيح الذي أمرك ربُّك به، كالصلاة التي أمرك بها. وقولنا «صليتُ بأمر الله» و«سبَّحتُ بأمر الله» يتناول هذا وهذا، يتناول أنه أمرٌ بذلك ففعلته بأمره لم أبتدعه، وأني فعلتُ بما أمرني به لم أبتدع.

(١) معالم التنزيل (٣/٢٣٦).

(٢) لا يوجد النص في تفسيره المطبوع.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٤.

فأما هذه الآية ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ (١) فلم يذكر البغوي وابن الجوزي إلا أنه الصلاة كما ذكرنا، وكذلك آية «ق»، قال ابن الجوزي (٢): «وسبح بحمد ربك» أي صلّ بالثناء على ربك والتنزيه عما يقول المبطلون. فذكر الثناء والتنزيه عما يقول المبطلون تفسيرًا للحمد. فأما البغوي (٣) فإنه قال: فصلّ حمدًا لله. وهو ينقل ما يذكره الثعلبي في تفسيره في مثل هذه المواضع، والثعلبي يذكر ما قاله غيره، سواء قاله ذاكرًا أو آثرًا، ما يكاد هو يُنشىء من عنده عبارة، وهذه عبارة طائفة قالوا: «سبح بحمد ربك» صلّ حمدًا لله، جعل نفس الصلاة حمدًا، كما يقال: افعل هذا حمدًا لله أي شكرًا. وهذا بنى على قول من قال: «بحمد ربك» أي بكونه محمودًا، ثم جعل المصدر يضاف إلى المفعول.

وليس المراد أن الحمد غير التسبيح، بل نفس تسبيح الله هو حمد الله. ولفظ التسبيح يُراد به جنس الصلاة، وقد يُراد به جنس الصلاة، وقد يُراد به النافلة خصوصًا، فإن الفرض لما كان له اسمٌ يخصّه جعل هذا اللفظ للنافلة، كما في الحديث (٤): كان رسول الله ﷺ يُسبِّح على راحلته حيث توجهت به راحلته. وكان يُصلّي سُبحة الضحى، ومنه ما رواه مسلم في صحيحه (٥) عن حفصة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ صلّى في سبحة قاعدًا، حتى كان قبل وفاته

(١) سورة طه: ١٣٠.

(٢) زاد المسير (٢٣/٨).

(٣) معالم التنزيل (٢٢٦/٤).

(٤) أخرجه البخاري (١٠٩٣، ١٠٩٧، ١١٠٤) ومسلم (٧٠١) عن عامر بن ربيعة.

(٥) برقم (٧٣٣).

بعام - وفي رواية: أو اثنين - فكان يصلي في سبحة قاعداً، وكان يقرأ فيها بالسورة فيرتلها، حتى يكون أطول من أطول منها. ومنه أيضاً ما أخرجاه في الصحيحين^(١) عن عائشة قالت: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُصلي سبحة الضحى قطُّ، وإني لأسبِّحها، وإن رسولَ الله ﷺ ليدعُ العمل وهو يُحبُّ أن يعمل به، خشيةً أن يعمل به الناس فيفرض عليهم.

لكن هذا يوجد في كلام الفصحاء، تسمية التطوع سُبْحَةً، خصَّوه بذلك. وأما في كلام النبي ﷺ فيحتاج إلى نقلٍ عنه.

ويراد بالتسبيح جنس ذكر الله تعالى، يقال: فلان يُسبِّح، إذا كان يذكر الله. ويدخل في ذلك التهليل والتحميد، ومنه سُمِّيت «السبَّاحة» للإصبع التي يشير بها، وإن كان يشير بها في التوحيد. ويراد بالتسبيح قول العبد «سبحان الله»، وهذا أخصُّ به.

وفي السنن^(٢): لما أنزل الله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزل ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم». وفي الصحيحين^(٣) عن النبي ﷺ قال: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». وفي الصحيحين^(٤) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من قال في يوم مئة مرة: سبحان الله وبحمده، حُطَّتْ عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر».

(١) البخاري (١١٢٨، ١١٧٧) ومسلم (٧١٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) عن عقبه بن عامر.

(٣) البخاري (٦٤٠٦، ٦٦٨٢، ٧٥٦٣) ومسلم (٢٦٩٤) عن أبي هريرة.

(٤) البخاري (٦٤٠٥) ومسلم (٢٦٩٢).

وقد قيل: إن الصلاة إنما سُمِّيت تسييحًا لاشتمالها على القيام والقراءة، وتُسَمَّى ركعة وسجدة لاشتمالها على الركعة والسجدة. لكن فرق بين قوله «سبح اسم ربك الأعلى» و«العظيم» - فهذه قد فُسِّرَتْ بالتسييح المجرد قول العبد في ركوعه وسجوده: سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى - وبين قوله «فسبح بحمد ربك»، فإن هذا إذا قيل: إن المراد بحمدك ربك أمرٌ بالتسييح وبالحمد، كقوله «سبحان الله وبحمده».

والمصلي إذا حَمِدَ رَبَّهُ في القيام، أو في القيام والقعود، وسَبَّحَ في الركوع والسجود، فقد جمع التسييح والحمد، فسَبَّحَ بحمد الله. فالصلاة تسييح بحمد ربه، كما بيَّن النبي ﷺ ذلك.

وقد فَسَّرَ طائفة من السلف قوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٤٨) (١) بالتسييح بالكلام (٢)، وذكروا أنواعًا: التسييح عند افتتاح الصلاة، والتسييح عند القيام من المجلس، فروى ابن أبي حاتم (٣) عن سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: إذا أراد أن يقوم الرجل من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك. هكذا رواه وكيع، ورواه أبو نعيم وقيصة فقالا: يقول سبحان الله وبحمده. وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد: «حين تقوم» قال: من كل مجلس. وعن طلحة عن عطاء: حين تقوم من كل مجلس، إن كنت أحسنت ازددت خيرًا، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارةً له.

وقال طائفة: حين تقوم إلى الصلاة، وكذلك قال الضحاك: حين تقوم إلى الصلاة المفروضة، وكذلك قال ابن زيد: إذا قام إلى الصلاة من

(١) سورة الطور: ٤٨.

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٧/٢٢ - ٢٣).

(٣) لا يوجد النص في النسخة المطبوعة. ورواه أيضًا الطبري (٢٧/٢٢).

ليل أو نهار، وفي رواية جُوَيْر عن الضحاك قال: هو قول الرجل إذا استفتح الصلاة «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، ولا إلهَ غيرُك». وقال أبو الجوزاء: حين تقوم من منامك من فراشك. وعلى هذا فهو أمرٌ بالصلاة إذا قام من فراشه من قائلة النهار، فهو أمرٌ بصلاة الظهر والعصر.

و«إدبار النجوم» فسرها طائفة بركعتي الفجر^(١)، وروى ابن عيينة عن ابن أبي نجیح عن مجاهد: «وإدبار النجوم» قال ابن عباس: هو التسييح أدبار الصلاة.

قلت: لعلّ هذا تفسير لقوله ﴿وَأَذْبَرَ السُّجُودَ﴾^(٢)، فإنه أنسب. وقد رُوِيَ عن طائفة من السلف^(٣) أن «أدبار السجود» الركعتان بعد المغرب، و«إدبار النجوم» ركعتا الفجر، فأحدهما تشبّه بالأخرى. فقوله ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَأَذْبَرَ السُّجُودَ﴾، إذا فسّر هذا بالتسييح دُبْر الصلاة كان اللفظ دالاً على هذا. والسلف الذين فسروها بهذا كأنهم - والله أعلم - أرادوا أن أول ما يُكْتَب في صحيفة النهار ركعتا الفجر، وآخر ما يُرْفَع ركعتا المغرب، فقد رُوِيَ أنهما تُرْفَعان مع عمل النهار.

قلت: ولفظ التسييح يتناول هذا كله، منه واجب ومنه مستحب. (آخره، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا).

(١) انظر تفسير الطبري (٢٧/٢٣ - ٢٤) و«الدر المثور» (٧/٦٣٦).

(٢) سورة ق: ٤٠.

(٣) انظر تفسير الطبري (٢٦/١١٢ - ١١٣) وابن أبي حاتم (١٠/٣٣١٠).

مسألة

في إخوة يوسف هل كانوا أنبياء؟

obbeikandi.com

الذي يدلُّ عليه القرآنُ واللغةُ والاعتبارُ أن إخوةَ يوسفَ ليسوا بأنبياءَ، وليس في القرآنِ ولا عن النبي ﷺ بل ولا عن أصحابه خبرٌ بأن الله تعالى نبأهم. وإنما احتجَّ من قال إنهم نبُّوا بقوله في آتي البقرة والنساء ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾^(١)، وفسر الأسباط بأنهم أولاد يعقوب، والصواب أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه بل ذريته، كما يقال فيهم أيضاً «بنو إسرائيل»، وكان في ذريته الأنبياء، فالأسباط من بني إسرائيل كلقبائل من بني إسماعيل.

قال أبو سعيد الضرير: أصل السَّبَط شجرةٌ ملتفةٌ كثيرة الأغصان^(٢). فسُمُّوا الأسباط لكثرتهم، فكما أن الأغصان من شجرة واحدة، كذلك الأسباط كانوا من يعقوب. ومثل السبط الحافد، وكان الحسن والحسين سبطين رسولِ الله ﷺ، والأسباط حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(٣)، فهذا صريحٌ في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل، كلُّ سبطين أمةٍ، لا أنهم بنوه الاثنا عشر. بل لا معنى لتسميتهم قبل أن تنتشر عنهم الأولاد أسباطاً، فالحال أن السَّبَط هم الجماعة من الناس.

ومن قال: الأسباط أولاد يعقوب، لم يُرد أنهم أولاده لصلبه، بل أراد ذريته، كما يقال: بنو إسرائيل وبنو آدم. فتخصيصُ الآيةِ بينه

(١) سورة البقرة: ١٣٦، وسورة النساء: ١٦٣.

(٢) انظر «لسان العرب» (سبط).

(٣) سورة الأعراف: ١٥٩ - ١٦٠.

لصلبه غلطٌ، لا يدلُّ عليه اللفظُ ولا المعنى، ومن ادَّعاه فقط أخطأ خطأً بيناً^(١).

والصواب أيضاً أن كونهم أسباطاً إنما سُئوا به من عهد موسى للآية المتقدمة، ومن حينئذٍ كانت فيهم النبوة، فإنه لا يُعرف أنه كان فيهم نبيٌّ قبلَ موسى إلا يوسف. ومما يؤيِّد هذا أن الله تعالى لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الآيات^(٢)، فذكر يوسف ومن معه، ولم يذكر الأسباط، فلو كان إخوة يوسف بُنُّوا كما بُنيَ يوسف لذكرُوا معه.

وأيضاً فإن الله يذكر عن الأنبياء من المحامد والثناء ما يناسب النبوة، وإن كان قبل النبوة، كما قال عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾^(٣) الآية، وقال في يوسف كذلك، وفي الحديث: «أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبي من نبي من نبي»^(٤). فلو كانت إخوته أنبياء كانوا قد شاركوه في هذا الكرم، وهو تعالى لما قصَّ قصة يوسف وما فعلوا معه ذكر اعترافهم بالخطيئة وطلبهم الاستغفار من أبيهم، ولم يذكر من فضلهم ما يناسب النبوة، ولا شيئاً من خصائص الأنبياء، بل ولا ذكر عنهم توبةً باهرةً كما ذكر عن ذنبه دون ذنبهم، بل إنما حكى عنهم الاعتراف وطلب الاستغفار. ولا ذكر سبحانه عن أحدٍ من الأنبياء - لا قبل النبوة ولا بعدها - أنه فعلَ مثلَ هذه الأمور العظيمة، من عقوق الوالد وقطيعة الرحم وإرقاق المسلم

(١) سورة الأنعام: ٨٤ وما بعدها.

(٢) انظر من قال بذلك في «الحاوي للفتاوي» للسيوطي (١/٣١٠).

(٣) سورة القصص: ١٤.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٨٢، ٣٣٩٠، ٤٦٨٨) عن ابن عمر بنحوه.

وبيعه إلى بلاد الكفر والكذب البين وغير ذلك مما حكاه عنهم، ولم يَحْكُ شيئاً يناسب الاصطفاءَ والاختصاصَ الموجب لنبوتهم، بل الذي حكاه يخالف ذلك، بخلاف ما حكاه عن يوسف.

ثم إن القرآن يدلُّ على أنه لم يأتِ أهلَ مِصْرَ نبيًّا قبلَ موسى سوى يوسف، لآيةِ غافر^(١)، ولو كان من إخوة يوسف نبيًّا لكان قد دعا أهل مصر، وظهرت أخبار نبوته، فلما لم يكن ذلك عَلِمَ أنه لم يكن منهم نبيًّا. فهذه وجوهٌ متعددةٌ يُقوِّي بعضها بعضاً.

وقد ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر، وهو أيضاً، وأوصى بنقله إلى الشام، فنقله موسى.

والحاصل أن الغلط في دعوى نبوتهم حَصَلَ من ظنِّ أنهم هم الأسباط، وليس كذلك، إنما الأسباط ذريتهم الذين قُطِّعُوا أسباطاً من عهد موسى، كل سِبْطِ أمة عظيمة. ولو كان المراد بالأسباط أبناء يعقوب لقال: «ويعقوب وبنيه»، فإنه أوجز وأبين. واختير لفظ «الأسباط» على لفظ «بني إسرائيل» للإشارة إلى أن النبوة إنما حصلت فيهم من حين تقطيعهم أسباطاً من عهد موسى. والله أعلم.

* * *

(١) الآية ٣٤.

obeikandi.com

فتوى

في قراءة القرآن بما يخرج منه عن استقامته

Obbeikandi.com

الحمد لله رب العالمين .

ما تقول أئمة الدين - رضي الله عنهم أجمعين، وجعلهم عاملين بما علّموا، مخلصين مصيبين - في قراءة القرآن بما يُخرجه عن استقامته التي أجمع أئمة القراءة عليها، من تمطيّ أو ترجيع بالألحان المُطربة، أو مدّ مُجمَع على قَصْرِهِ، أو قَصْرٍ مُجمَع على مَدِّهِ، أو إظهار ما أُجمَع على إدغامِهِ، أو إدغام ما أُجمَع على إظهارِهِ، أو تشديد ما أُجمَع على تخفيفِهِ، أو تخفيف ما أُجمَع على تشديده، أو بما يُزيل الحرف عن مَخْرَجِهِ أو صفته، وما أشبه ذلك مما يُعانيه بعض القراء، هل تجوز تلك القراءة؟ وهل يجوز سَماعُها أو استماعُها؟ فإن لم تجز فهل يلزم سامعها أن يُنكر على قارئها؟ فإن لزمه وترك فهل يَأثم؟ وإن أنكر على قارئها، ولم يقبل القارئ، فهل يجب عليه شيء أم لا؟ أفتونا مأجورين، رحمكم الله، والحمد لله وحده.

أجاب شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية:

الحمد لله . الناسُ مأمورون أن يقرأوا القرآن على الوجه المشروع، كما كان يقرأه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإن القراءة سنةٌ يأخذها الآخرُ عن الأول.

وقد تنازع الناسُ في قراءة الألحان، منهم من كرهها مطلقاً بل حرّمها، ومنهم من رخص فيها^(١)، وأعدل الأقوال فيها أنها إن كانت موافقةً لقراءة السلف كانت مشروعاً، وإن كانت من البدع المذمومة

(١) انظر تفصيل القول في ذلك في «زاد المعاد» (١/٤٦٦ - ٤٧٥).

نُهِيَ عنها. والسلف كانوا يحسّنون القرآن بأصواتهم من غير أن يتكلفوا أوزان الغناء، مثل ما كان أبو موسى الأشعري يفعل، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد أُوتِيَ هذا مِزْمَارًا من مزامير آل داود»^(١). وقال لأبي موسى الأشعري: «مررتُ بك البارحة وأنتَ تقرأ، فجعلتُ أستمعُ لقراءتك»، فقال: لو علمتُ أنك تسمعُ لحبّرتُه لك تحبيرًا^(٢). أي لحسّنتُه لك تحسینًا. وكان عمر يقول لأبي موسى الأشعري: يا أبا موسى، ذكّرنا ربّنا، فيقرأ أبو موسى وهم يستمعون لقراءته.

وقد قال النبي ﷺ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٣). وقال: «لَللَّهِ أَشَدُّ أَدْنًا إِلَى الرَّجْلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ»^(٤). وقال: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»^(٥).

وتفسيره عند الأكثرين كالشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما هو تحسين الصوت به. وقد فسّره ابن عيينة ووكيع وأبو عبيد على الاستغناء به. فإذا حسّن الرجلُ صوته بالقرآن كما كان السلف يفعلونه - مثل أبي موسى الأشعري وغيره - فهذا حسن.

وأما ما أُحْدِثَ بعدهم من تكلفِ القراءةِ على ألحانِ الغناء فهذا

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣) عن أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه أبو يعلى كما في «مجمع الزوائد» (١٧٠/٧)، قال الهيثمي: فيه خالد ابن نافع الأشعري، وهو ضعيف. وانظر «فتح الباري» (٩٣/٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢٨٣/٤، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤) وأبو داود (١٤٦٨) والنسائي (١٧٩/٢، ١٨٠) وابن ماجه (١٣٤٢) من حديث البراء بن عازب. وصححه ابن حبان والحاكم.

(٤) أخرجه أحمد (١٩/٦ و ٢٠) وابن ماجه (١٣٤٠) من حديث فضالة بن عبيد.

(٥) أخرجه البخاري (٧٥٢٧) عن أبي هريرة.

يُنْهَى عنه عند جمهور العلماء، لأنه بدعة، ولأن ذلك فيه تشبيه القرآن بالغناء، ولأن ذلك يُورثُ أن يَبْقَى قلبُ القارئ مصروفًا إلى وزن اللفظ بميزان الغناء، لا يَتَدَبَّرُهُ ولا يَعْقِلُهُ، وأن يَبْقَى المستمعون يُصْغُونَ إليه لأجل الصوتِ المَلْحَن كما يُصْغَى إلى الغناء، لا لأجلِ استماعِ القرآن وفهمه وتَدَبُّره والانتفاع به. والله سبحانه أعلم.

* * *

obeikandi.com

رسالة في قوله ﷺ :

«إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فَأَطْعَمَهُ طَعَامًا
فَلْيَأْكُلْ مِنْ طَعَامِهِ وَلَا يَسْأَلْ عَنْهُ»

obbeikandi.com

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
أجمعين، وسلّم تسليمًا.

روى الإمام أحمد في «مسنده»^(١): حدثنا حسين بن محمد، ثنا
مسلم - يعني ابن خالد - عن زيد بن أسلم عن سُمَيِّ عن أبي صالح
عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «إذا دخل أحدكم على أخيه المسلم
فأطعمه طعامًا، فليأكل من طعامه ولا يسأله عنه، وإن سقاه شرابًا من
شرابه فليشرب من شرابه ولا يسأله عنه».

هذا حديث رواه مشهورون، ومسلم بن خالد الزنجي وثقه بعض
الأئمة وضعّفه بعضهم. وقد رُوِيَ هذا الحديث من وجهٍ آخر عن أبي
هريرة، رواه ابن عجلان عن المقبري عن أبي هريرة^(٢)، وقد رُوِيَ
موقوفًا. وقد رأيت للشيخ أبي عمر بن عبد البر رسالة^(٣) أملاها حين
بلغه - وهو بشاطبة - أن قومًا عابوه بأكل طعام السلاطين وقبول
جوائزهم:

قُلْ لِمَنْ يُنْكِرُ أَكْلِي لَطْعَامِ الْأُمَرَاءِ
أَنْتَ مَنْ جَهَلِكْ هَذَا فِي مَحَلِّ السَّفَهَاءِ

لأن الاقتداء بالصالحين من الصحابة والتابعين وأئمة الدين من
المسلمين والسلف الماضين هو ملاك الدين، فقد كان زيد بن ثابت

(١) ٣٩٩/٢. وأخرجه أيضًا أبو يعلى في «مسنده» (٦٣٥٨) والحاكم في «المستدرک»
(١٢٦/٤).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١٢٦/٤) من هذا الطريق.

(٣) لم أجد لها ذكرًا ضمن مؤلفاته.

- وكان من الراسخين في العلم - يُقْبَلُ جوائزَ معاويةَ وابنه يزيد، وكان ابن عمر مع ورعه وفضله يُقبل هدايا صِهْرِهِ المختار بن أبي عبيد، ويأكل طعامه ويأخذ جوائزَه، وكان المختار غيرَ مختار.

وقال عبدالله بن مسعود - وكان قد مُلِيَءَ علماً من قرْنه إلى مشاعبه - لرجلٍ سأله فقال: إنَّ لي جاراً يعمل الربا، ولا يجتنب في مكسبه الحرام، يدعوني إلى طعامه إذا جئتُ، فقال: لك المَهْنَةُ وعليه المأثمُ ما لم تعلم الشيء بعينه حراماً.

وسئل عثمان بن عفان عن جوائز السلطان فقال: لَحْمُ ظَنِي ذَكِيٌّ.

وكان الشعبي - وهو من كبار التابعين وعلماهم - يُؤدِّبُ بني عبدالملك بن مروان، ويُقبل جوائزَه، ويأكل طعامَه.

وكان إبراهيم النخعي وسائر علماء الكوفة والحسن البصري - مع زهده وورعه - وسائر علماء البصرة وأبو سلمة بن عبدالرحمن وأبان ابن عثمان والفقهاء السبعة - حاشا سعيد بن المسيَّب - يقبلون جوائز السلاطين والأمراء. وقَبِلَ الحسنُ والشعبي جائزة ابن هبيرة لما سألهما عن حاله مع عبدالملك. وكان سفيان الثوري مع فضله وورعه يقول: جوائزُ السلطان أحبُّ إليَّ من صِلاتِ الإخوان، لأنَّ الإخوان يَمُتُّون والسلطان لا يَمُتُّ.

ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير، وقد جمع الناس فيه أبواباً، ولأحمد بن خالد فقيه الأندلس وعالمها في ذلك كتابٌ، حَمَلَهُ على جَمْعِهِ ووَضَعَهُ طَعْنُ أَهْلِ بِلادِهِ عليه في قبوله جوائزَ عبدالرحمن الناصر إذ نقلَه إلى المدينة بقرطبة، وأسكَنَهُ داراً من دُورِ الجامع قُرْبَهُ، وأجرى عليه الرزقَ من الطعام والشراب والإدام والناص. وله ولمثله في بيت

المال حظُّ، والمسئولُ عن التخليط فيه هو السلطان، كما قال عبدالله ابن مسعود: لك المَهْنَةُ وعليه المَأْتُمُ لما لم تعلم الشيءَ بعينه حرامًا.

ومعنى قول ابن مسعود هذا قد اجتمع عليه العلماء ما لم تعلم الشيءَ بعينه حرامًا مأخوذًا من غير حلِّه، كالخبزة وشبهها من الطعام والثوب والدابة، وما كان مثل ذلك كله من الأشياء المبيعة غضبًا أو سرقةً، أو مأخوذة بظلم بيِّن لا شبهةَ فيه، فهذا الذي لم يَخْتَلِفِ أحدٌ في تحريمه وسقوطِ عدالةِ مستحلِّ الحلَّةِ وأخذه وتملكه، وما أعلمُ أحدًا من علماء التابعين تورَّع عن جوائز السلطان إلا سعيد بن المسيب بالمدينة ومحمد بن سيرين بالبصرة، وهما قد ذهبا مثلاً بالورع، وسلك سبيلهما في ذلك أحمد بن حنبل وأهل الزهد والورع والتقشف رحمة الله عليهم أجمعين.

والزهد في الدنيا من أفضل الفضائل، ولا يَحِلُّ لمن وفقه الله تعالى وزهد فيها أن يُحرِّم ما أباح الله منها. والعجب من أهل زماننا يعيرون الشهواتِ وهم يستحلُّون المحرماتِ والمنكراتِ، ومثألهم عندي كالذين سألوا عبدالله بن عمر عن المُحرِّمِ يَقْتُلُ القُرَادَ والقملة، فقال للسائلين: من أين أنتم؟ فقالوا: من أهل الكوفة، فقال: تسألونني عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن علي؟!!

وروى عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أتاك من غير مسألة فخذُه، وتموَّله»^(١).

وروى أبو سعيد الخدري وجابر بن عبدالله عن النبي ﷺ معناه^(٢)،

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٣، ٧١٦٣، ٧١٦٤) ومسلم (١٠٤٥).

(٢) لم أجد حديثهما، وفي الباب عن غيرهما من الصحابة، انظر «مجمع الزوائد» (١٠٠/٣ - ١٠١).

وفي حديث أحدهما: «إنما هو رزقٌ رَزَقَهُ اللهُ»، وفي لفظ بعض الرواة: «فلا تَرُدَّ على اللهِ رِزْقَهُ».

وهذا كله عند أهل العلم مرَكَّبٌ مَبْنِيٌّ على ما أجمعوا عليه، وهو الحق فيمن عرفَ الشيءَ المحرَّم بعينه أنه لا يَحِلُّ له^(١). والله سبحانه وتعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، وسلِّم تسليمًا.

* * *

(١) انظر في هذا الموضوع: «فتح الباري» (٣/٣٣٨، ١٣/١٥٣ - ١٥٤).

جواب سؤال سائلِ سألَ عن
حرف «لو»

obbeikandi.com

الحمد لله الذي علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الباهرُ البرهان، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبعوثُ إلى الإنس والجان، صلى الله عليه وآله وسلّم تسليمًا يَرْضَى به الرحمن.

سألت - وفّقك الله - عن معنى حرف «لو»، وكيف يتخرج قول عمر رضي الله عنه: «نعم العبدُ صهيّبٌ، لو لم يَخَفِ اللهَ لم يَعِصِه»^(١) على معناها المعروف؟ وذكرت أن الناس يضطربون في ذلك، واقتضبت الجواب اقتضابًا أوجبَ أن أكتب في ذلك ما حضرني الساعة، مع بُعد عهدي بما بلغني مما قاله الناس في ذلك، وإني ليس يحضرني الساعة ما أراجعه في ذلك. فأقول، والله الهادي النصير:

الجواب مرتبٌ على مقدمات:

إحداها: أن حرف «لو» المسئول عنها من أدوات الشرط، وأن الشرط يقتضي جملتين إحداها شرطٌ والأخرى جزاء وجواب، وربما سُمِّيَ المجموع شرطًا، وسُمِّيَ أيضًا جزاءً. ويقال لهذه الأدوات أدوات الشرط وأدوات الجزاء، والعلم بهذا كلّهُ ضروريٌّ لمن كان له عقلٌ وعلمٌ بلغة العرب، والاستعمال على ذلك أكثر من أن يُحصَرَ،

(١) لم يثبت هذا عن عمر وإن اشتهر على لسان الأصوليين وأصحاب المعاني وأهل العربية. ورؤي معناه من حديث عمر مرفوعًا في حق سالم مولى أبي حذيفة، ونصه كما في «الحلية» (١/١٧٧): «إن سالمًا شديد الحبّ لله عز وجل، لو كان لا يخاف الله ما عصاه». وسنده ضعيف، انظر «المقاصد الحسنة»: ٤٤٩، و«الدرر المنتثرة»: ١٩٦.

كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمًا ﴾ (١)،
﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ
الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ (٢)، ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا ﴾ (٣)، ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَانِهِمْ وَعَنْهُ ﴾ (٤)، ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ
مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ (٥)، ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ
إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ (٦).

الثانية: أن هذا الذي تسميه النحاة شرطًا هو في المعنى سببٌ لوجود الجزاء، وهو الذي تُسمِّيه الفقهاء علةً ومقتضياً وموجباً ونحو ذلك، فالشرط اللفظي سبب معنوي. فتفطن لهذا، فإنه موضع غلط فيه كثير ممن يتكلم في الأصول والفقه، وذلك أن الشرط في عرف الفقهاء ومن يجري مجراهم من أهل الكلام والأصول وغيرهم هو ما يتوقف تأثير السبب عليه بعد وجود المسبب، وعلامته أنه يلزم من عدمه عدمُ المشروط، ولا يلزم من وجوده وجودُ المشروط.

ثم هو منقسمٌ إلى ما عُرف كونه شرطًا بالشرع، كقولهم: الطهارة والاستقبال واللباس شرط لصحة الصلاة، والعقل والبلوغ شرطٌ لوجوب الصلاة، فإن وجوب الصلاة على العبد يتوقف على العقل والبلوغ، كما تتوقف صحة الصلاة على الطهارة والستارة واستقبال

(١) سورة النساء: ٤٦.

(٢) سورة النساء: ٦٤.

(٣) سورة الأنفال: ٢٧.

(٤) سورة الأنعام: ٢٨.

(٥) سورة التوبة: ٤٧.

(٦) سورة المائدة: ٨١.

القبلة، وإن كانت الطهارة والستارة أمورًا خارجةً عن حقيقة الصلاة. ولهذا يفرقون بين الشرط والركن بأن الركن جزءٌ من حقيقة العبادة أو العقد، كالركوع والسجود، وكالإيجاب والقبول؛ وبأن الشرط خارجٌ عنه، فإن الطهارة يلزم من عَدَمِها عدمُ صحة الصلاة، ولا يلزم من وجودها وجودُ الصلاة.

وتختلف الشروط في الأحكام باختلافها، كما يقولون في باب الجمعة، منها ما هو شرطٌ للوجوب بنفسه، ومنها ما هو شرطٌ للوجوب بغيره، ومنها ما هو شرطٌ للإجزاء دون الصحة، ومنها ما هو شرطٌ للصحة. وكلام الفقهاء في الشروط كثير جدًا، لكن الفرق بين السبب والشرط وعدم المانع إنما يتم على قول من يُجوِّز تخصيصَ العلةِ منهم، وأما من لا يُسمِّي علةً إلا ما استلزم من الحكم ولِزَمَ من وجودها وجوده على كل حالٍ، فهؤلاء يجعلون الشرطَ وعدمَ المانع من جملة أجزاء العلة.

وإلى^(١) ما يُعرَفُ كونه شرطًا بالعقل وإن دلَّ عليه دلائل أخرى، كقولهم: الحياة شرطٌ في العلم والإرادة والسمع والبصر والكلام، والعلم شرطٌ في الإرادة، ونحو ذلك، وكذلك جميع صفات الأجسام وطباعتها لها شروط تُعرَفُ بالعقل أو بالتجارب أو بغير ذلك. وقد تُسمَّى هذه شروطًا عقلية، والأول شروطًا شرعية.

وقد يكون من هذه الشروط ما يُعرَفُ اشتراطُه بالعرف، ومنه ما يُعرَفُ باللغة، كما يُعرَفُ أن شرطَ المفعول وجودُ فاعلٍ، وإن لم

(١) هذا القسم الثاني مما مضى في قول المؤلف: «هو منقسم إلى ما عُرِفَ كونه شرطًا بالشرع».

يكن شرطُ الفاعل وجود مفعول، فيلزم من وجود المفعول المنصوب وجودُ فاعلٍ، ولا ينعكس. بل يلزم من وجود اسم منصوبٍ أو مخفوضٍ وجودُ مرفوعٍ، ولا يلزم من وجود المرفوع لا منصوبٌ ولا مخفوضٌ، إذ الاسمُ المرفوع - مُظهِرًا أو مُضْمَرًا - لا بُدَّ منه في كل كلامٍ عربيٍّ، سواءً كانت الجملة اسميةً أو فعليةً.

فقد تبين أن لفظ الشرط في هذا الاصطلاح يدلُّ على عدمه على عدم المشروط ما لم يخلُفه شرطٌ آخر، ولا يدلُّ ثبوته من حيث هو شرطاً على ثبوت المشروط.

وأما الشرط في الاصطلاح الذي يُتكلَّم به في باب أدوات الشرط اللفظية - سواءً كان المتكلم [نحوياً] أو فقيهاً وما يتبعه من متكلم وأصولي ونحو ذلك - فإن وجود الشرط يقتضي وجود المشروط الذي هو الجزاء والجواب، وعدم الشرط هل يدلُّ على عدم المشروط؟ مبنيٌّ على أن عدم العلة هل يقتضي عدم المعلول؟ فيه خلاف وتفصيل قد أُومئ إليه.

الخوف^(١) لو فُرِضَ عَدَمُهُ لكان مع هذا العدم لا يعصي الله، لأن ترك المعصية له قد يكون لخوف الله، وقد يكون لأمرٍ آخر: إما لنزاهة الطبع أو إجلال الله أو الحياء منه أو لعدم المقتضي إليها، كما كان يقال عن سليمان التيمي: إنه كان لا يُحسِنُ أن يعصي الله. فقد أخبرنا عنه أن عدم خوفه لو فُرِضَ موجوداً لكان مستلزماً لعدم معصية الله، لأن هذا العدم يضاف إلى أمورٍ أخرى: إما عدمٌ مُقتَضٍ أو وجودٌ مانع، مع أن هذا خوفٌ حاصلٌ.

(١) كذا في الأصل، ولعلَّ قبلها سقطاً. وهذا شرحٌ لمعنى الأثر.

وهذا المعنى يفهمه من الكلام كلُّ أحدٍ صحيح الفطرة، لكن لما وقع في بعض القواعد اللفظية والعقلية نوعٌ توسُّع - إمّا في التعبير وإمّا في الفهم - اقتضى ذلك خللاً إذا بنى على تلك القواعد المحتاجة إلى تميم، فإذا كان للإنسان فهمٌ صحيحٌ ردَّ الأشياء إلى أصولها، وقرَّر النظر على معقولها، وبيَّن حكمَ تلك القواعد وما وقعَ فيها من تجوُّزٍ أو توسُّعٍ، فإن الإحاطة في الحدود والضوابط غير تحرير^(١).

ومنشأ الإشكالِ أخذُ كلام بعض النحاة مسلِّماً أن المنفي بعد «لو» مُثَبِّتٌ، والمثبُتُ بعدها منفيٌّ، أو أن جواب «لو» منتفٍ أبداً، وجواب «لولا» ثابت أبداً، وأن «لو» حرفٌ يمتنع به الشيء لامتناع غيره، و«لولا» حرفٌ يدلُّ على امتناع الشيء لوجود غيره مطلقاً. فإن هذه العبارات إذا قُرِنَ بها «غالباً» كان الأمر قريباً، وأما أن يُدَّعى أنّ هذا مُقتضى الحرف دائماً فليس كذلك، بل الأمر كما ذكرناه من أن «لو» حرف شرط تدلُّ على انتفاء الشرط، فإن كان الشرط ثبوتياً فهي «لو» محضّة، وإن كان الشرط عدمياً مثل «لولا» و«لو لم» دلَّت على انتفاء هذا العدم بثبوت نقيضه، فيقتضي أن هذا الشرط العدمي مستلزم لجزائه، إن وجوداً وإن عدمًا، وأن العدمَ منتفٍ. وإذا كان عدمُ شيء سبباً في أمرٍ فقد يكون وجودُه سبباً في عدمه، وقد يكون وجودُه أيضاً سبباً في وجوده، بأن يكون الشيء لازماً لوجود الملزوم ولعدمه، والحكم ثابت مع العلة المعينة، ومع انتفائها لوجود علة أخرى.

وإذا عرفت أنّ مفهومها اللازم لها إنما هو انتفاء الشرط، وأنَّ

(١) كذا في الأصل.

فهم نفي الجزاء منها ليس أمرًا لازمًا، وإنما يفهم باللزوم العقلي أو العادة الغالبة، وعطفت على ما ذكرته من المقدمات زال الإشكال بالكلية.

وكان يمكننا أن نقول: إن حرف «لو» دالة على انتفاء الجزاء، وقد تدل أحيانًا على ثبوته: إما بالمجاز المقرون بقريضة أو بالاشتراك، لكن جعل اللفظ حقيقة في القدر المشترك أقرب إلى القياس. مع أن هذا إن قاله قائل كان سائغًا في الجملة، فإن الناس ما زالوا يختلفون في كثير من معاني الحروف: هل هي مقولة بالاشتراك أو بالتواطؤ أو بالحقيقة والمجاز، وإنما الذي يجب أن نعتقد بطلانه ظنُّ ظانِّ ظنَّ أن لا معنى لـ«لو» إلاّ عدمُ الجزاء والشرط، فإن هذا ليس بمستقيم البتّة. والله سبحانه أعلم.

* * *